
أنت لي

مطبوعات

أخبار اليوم

قطاع الثقافة

رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعده

أخبار اليوم

قطاع الثقافة

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ ش الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس ٥٧٩٠٩٣٠

أنا حرة

إحسان عبد القدوس

مقدمة الطبعة الثانية

أنا لا أكاد أعرف نفسي في هذه القصة ..

إنها قصة منتزعة من حياتي .. من حي العباسية الذي عشت فيه .. ومن شخصيات عرفتها فعلا .. ومن آراء كنت أؤمن بها ، ولا زلت أؤمن ببعضها ..

ورغم ذلك فإني لا أعرف نفسي في هذه القصة ..

لا أعرف نفسي ككاتب قصة ..

ويخيل إليّ وأنا أقلب الصفحات ، أن كاتبا آخر هو الذي كتبها .. كاتبا استعار ذكرياتي ، واستعار الشخصيات التي عرفتها ، واستعار آرائي .. ثم كتب كل ذلك بأسلوبه وفنه ، لا بأسلوبي ولا بفني ..

وأعتقد أن من يقرأ لي اليوم ، لا يكاد يعرفني في هذه القصة ..

ولا يعني ذلك أني أتبرأ من « أنا حرة » .. بالعكس إني أزهو بها كعلامة من علامات الطريق الذي سرت فيه ، ولم أتمه بعد..

وهو طريق سار فيه كل كتاب القصة .. ومن يقرأ اليوم « عودة الروح » لتوفيق الحكيم ، لا يكاد يعرف توفيق الحكيم.. لا في أسلوبه ، ولا في فنه .

إنه طريق التطور ..

وقد بدأت كتابة القصة منذ كنت صبيا فى الحادية عشرة من عمرى .. قصص لم تزد قيمتها عن أنها مجرد محاولات صبى ..

وعندما أصبحت فى السابعة عشرة من عمرى ، كتبت قصصا فى أسلوب أقرب إلى الشعر المنثور .. مجرد خيال مراهق مفكك ..

وعندما دخلت الجامعة ـ فى الثامنة عشرة من عمرى ـ توقفت عن محاولات كتابة القصة .. واكتفيت بقراءة القصص العالمية والمصرية ..

وفى هذه المرحلة بدأت اشتغالى بالصحافة ..

وأخذتنى الصحافة .. أخذت كل تفكيرى ، وكل جهدى ، وكل عواطفى ، .. واتجه قلمى اتجاها عنيفا نحو الخبر والمقال .

وبعد أن سرت فى الصحافة طويلا ، عدت إلى محاولة القصة ، ولكنى لم أحاول أن أكتب القصة كأديب ، فكنت أكتبها كصحفى ..

وفى كثير من القصص نشرت لى فى ذلك الحين كانت شخصيتى كصحفى تطغى على شخصيتى كأديب .. أو ككاتب قصة ..

معظم القصص التى نشرت فى مجموعة « صانع الحب » و « بائع الحب » .. مجرد ذكريات لشاب يزور أوروبا ، كتبت بأسلوب أقرب إلى الأسلوب الصحفى .. وفى كثير منها كنت أقطع سياق القصة لأصف بلدا وأتكلم عن الشخصيات التى التقيت بها فى هذا البلد !!

وفى « النظارة السوداء » كنت أقطع سياق القصة ، لأكتب

مقالا دفاعا عن فكرة ، أو رأى !!

أما « أنا حرة » فقد اعتبرها كثير من الزملاء ، خطوة كبيرة لى .. ورغم ذلك فإنى عندما أقرأها ، ألمح فيها شخصيتى الصحفية .. إنها ـ كمعظم القصص التى سبقتها ـ مكتوبة بأسلوب الماضى .. وتكاد تكون تحقيقا صحفيا أكثر منها قصة أدبية !!

وكل هذا يعتبر نقصا فى السرد القصصى ، أو فى «تكنيك» القصة .. وهو نقص أعترف به ..

ولم أكن أستطيع أن أفصل شخصيتى الصحفية عن شخصيتى الأدبية .. عمدا .. وبإجراء اتخذه .. إنما كان أمر هذا الفصل متروكا لتطورى كأديب ، وتطورى كصحفى .. وللمران الطويل فى كتابة القصة ..

ومع الأيام بدأت الشخصيتان تنفصلان ..

وساعد قيام الثورة على فصلهما .. فقد انتهت بقيام الثورة حملاتى الصحفية العنيفة ضد العهد الماضى .. وكانت الثورة هدفا وصلت إليه .. واستطعت بعدها أن أجد فى تفكيرى ، وجهدى ، وعواطفى متسعا أكبر لكتابة القصة ..

ومن يقرأ « الطريق المسدود » أو « لا أنام » أو مجموعة قصص « منتهى الحب » أو « فى بيتنا رجل » ، يجد أن انفصال الشخصيتين الصحفية والأدبية ، قد تحقق إلى حد كبير ، سواء من ناحية الأسلوب ، أو من ناحية السرد القصصى ..

هذه الخواطر ، أو التحليل ، أو النقد .. أثارته قراءتى الثانية لقصة « أنا حرة » ..

ولكن .. كان فى « أنا حرة » شىء آخر ..

القارئ والكاتب ، إلا إذا دار الحوار بلهجة أبطال القصة ..

إنى كتبت قصصا قصيرة كثيرة حوارها بالفصحى ، ولا زلت أكتب كل قصصى القصيرة بالفصحى .. ولكن القصة الطويلة .. لا يمكن .. إنها تبدو مفتعلة سقيمة ، إذا كتب حوارها بالفصحى على لسان ابطال لا يتكلمون فى حياتهم بالفصحى .

ووضعت لنفسى منهجا فى كتابة الحوار ..

القصة الطويلة : بالعامية !

القصة القصيرة : بقدر حاجتها إلى تصوير جو القصة ..

إذا كانت قصة تعتمد اعتمادا كبيرا على تصوير الجو يكتب حوارها بلهجة أبطالها ، وإذا كانت تعتمد على الفكرة أكثر من الجو ، يكتب الحوار بالفصحى ..

أما إذا كان أبطال القصة ـ سواء القصيرة ، أو الطويلة ـ من الأجانب الذين يتكلمون الانجليزية أو الفرنسية أو أى لغة أجنبية ، فإن الحوار ، فى هذه الحالة يكون بالفصحى ، لأنه يقع فى ذهن الكاتب والقارئ كترجمة للغة الأبطال .. والترجمة تكتب دائما بالفصحى ..

ورغم ذلك فالأدباء كلهم لا يزالون فى حيرة .. والمحاولة الوحيدة التى تمت لحل مشكلة الحوار ، هى محاولة الاستاذ الكبير توفيق الحكيم فى كتابة الحوار بألفاظ منتقاة ، تنطق بالعامية والفصحى فى وقت واحد .. وهى محاولة لا يحتملها ولا يستطيعها إلا من يصل إلى قدرة توفيق الحكيم ..

ولن يلحظ القراء فى هذه الطبعة من « أنا حرة » هذا الخطأ

شيء غريب ..

فقد لاحظت أن الحوار في بعض فصول القصة مكتوب باللغة العامية .. العامية جدا .. وفصولا أخرى مكتوبة باللغة العربية الفصحى .. الفصحى جداً !!

كيف حدث هذا ؟

وتذكرت ..

لقد قرأت أثناء كتابتي للقصة ، قصة عراقية باللغة العامية.. ولم أفهم منها شيئا .. وخيِّل إليّ أن قراء العراق لن يفهموا من قصتي شيئا إذا كتبت حوارها باللغة المصرية العامية !!

واقتنعت بأن الحل الوحيد هو أن يكتب الحوار دائما باللغة الفصحى ..

وكنت قد نشرت فعلا بعض فصول « أنا حرة » مسلسلة في « روز اليوسف » ، وكانت الفصول التي نشرت ، حوارها كله بالعامية .. ولكن هذه العقبة لم تزعزع من إيماني الجديد ، فأكملت بقية الحوار باللغة الفصحى !

هذا ما حدث ..

وهو خطأ شنيع ..

فإما أن يكتب حوار القصة كله باللغة العامية ، وإما أن يكتب باللغة الفصحى .. أما أن يكتب ، نصفه عامي ، ونصفه فصيح .. فهذا هو الخطأ الشنيع !

وقد حاولت بعد أن انتهيت من « أنا حرة » ، أن أكتب حوار قصصي الطويلة باللغة الفصحى .. ولم أستطع .. لا لعجزي ولكن لأن القصة الطويلة تحتاج إلى « جو » أكثر من القصة القصيرة .. و « جو » القصة الطويلة لا يمكن أن يحس به

الذى وقعت فيه عندما نشرت الطبعة الأولى .. فقد عملت على تصحيح الخطأ ، رغم معارضة زملائى الأدباء الذين كان من رأيهم أن أترك الخطأ كما هو .. على اعتبار أنه من أخطاء شبابى الأدبى . وأجمل ما فى الشباب أخطاؤه !

ولكنى رغم ذلك صممت على تصحيح الخطأ .. وقد بذلت فى تصحيحه جهدا كبيرا حتى أصل إلى مرتبة الصدق والحماس اللذين كتب بهما حوار الطبعة الأولى ..

بقيت فكرة القصة ، والآراء التى تضمنتها ..

وأنا لازلت مؤمنا بالفكرة ، ومؤمنا بالآراء التى تضمنتها .. عدا رأيا واحدا .. ولن أشير إلى هذا الرأى ، فقد عدلت عنه فى كثير من المقالات التى نشرتها بعد أن نشرت « أنا حرة » ..

وبعد ..

لقد كنت أعتقد وأنا أعيد قراءة « أنا حرة » أنى كتبتها منذ عشر سنوات .. ثم إذ بى أكتشف أنى كتبتها منذ خمس سنوات فقط ..

كم يتغير الإنسان فى خمس سنوات !!

إحسان عبد القدوس

مقدمة الطبعة الأولى

هذه هى الحقيقة !

□ إنى لا اطمع أن يقتنع كل قارىء بهذه القصص أو يقر نشرها ، كل ما أريده أن يحاول كل قارىء أن يفهمها ، وأن لا يعلق عينيه بسطر أو سطرين ثم يتجاهل باقى السطور .. أريد أن تصلوا معى إلى الفكرة وإلى « الحقيقة » التى يرسمها أبطال هذه القصص .. ولكم بعد ذلك أن تقتنعوا أو لا تقتنعوا .. ولكن لا تحكموا قبل أن تفهموا حتى لا تظلمونى ..

وقد جلبت لى هذه القصص من المتاعب قدر ما جلبته لى كتاباتى فى المواضيع السياسية والوطنية .. وأثارت حولى من الجدل والمناقشة والتهم قدر ما أثارته قضية الأسلحة الفاسدة مثلا !!

وكان يمكننى أن أتجنب كل هذه المتاعب وكل هذا الجدل ، لو أنى رفعت بضعة سطور من كل قصة ، ولو أنى عدلت - مثلا - تعديلا طفيفا فى نهاية قصة « أنا حرة » .. ولكنى رفضت أن ينزع سطر واحد برضاى ، وصممت على أن تبقى « أنا حرة » حرة فى اختيار نهايتها !!

إني لا أستطيع أن أشوه الحقيقة ..

وهذه القصص تصور الحقيقة ..

حقيقة الإنسان ..

وكلما ارتقى الإنسان استطاع أن يواجه حقيقة نفسه .. وكلما ظل الإنسان متأخرا ظل يهرب من الحقيقية .. والحقيقة تلاحقه إلى أن تنتصر عليه !..

افسحوا الطريق .. إن الحقيقة تتقدم !!.

إحسان عبدالقدوس



« ليس هناك شيء يسمى الحرية ، وأكثرنا حرية هو عبد للمبادىء التى يؤمن بها، وللغرض الذى يسعى إليه..

إننا نطالب بالحرية لنضعها فى خدمة أغراضنا .. وقبل أن تطالب بحريتك اسأل نفسك : لأى غرض ستهبها ؟!.. »

إحسان



١

عام ١٩٣٦ ..

الساعة السابعة صباحا .. وكانت تقف فى شرفة البيت رقم ٣ بشارع الجنزورى بالعباسية .. فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها .. سمراء ملتهبة الوجنتين ، ملتهبة الشفتين ، احتارت معها عيناها لا تدريان أين تستقران ، واحتار معها قوامها الناضج ، على أى الأوضاع يرتكز ..

وكانت ترتدى ثوب المدرسة وفى يدهـا حقيبتهـا المدرسية ، تضعها أحـيانا فوق حاجز الشرفة وتميل عليـها لتريح صدرها البكر الذى تجمع فيـه شبابها فـبرز فى استدارتين مقـدستين كأنهـما شـارتا معـبد يبـدو بعيـدا فى الأفق ، يلهث الناس فى السعى إليـه فلا يلحقون به ، وتمتـد نحوه أذرع البشر مبـتهلة فلا تصل إلى شىء منه .

وكانت أحيـانا ترفع حقيبـتها المدرسية هذه وتسـقطها على الأرض ثم تقف عليها بقدميها الصـغيرتين ، وتدب فوقها دبيبا رقيقا كأنها ترقص طربا تحيى الشروق ، أو كأنها تهصر شيئا تكرهه ويزعج صباحها !!.

وكانت فى وقفـتها ترقب طلبة مدرسـة فؤاد الأول الثانوية وهم يمـرون من تحت شرفتـها ، كـأنهم موكب العـبيـد يقدم فريضـة الخشوع للـملكة .. وكل منهم يحاول أن يرفع عـينيه إليها ، ثم يردهما عنهـا بسرعة وكأن قد غشيهـما ضوء ساطع لا قبل لهـما باحتـماله .. وبعضـهم يحاول أن يثيـر اهتمامـها فيـقف يجادل زميله بصوت مـرتفع ، أو يثير مـعركة مفـتعلة ليظهر فيها تفوقه ، أو يلقى نكتـة بصوت مسموع علها تضحك لها ..

وهى تتقبل كل هذه المحاولات بابتسامة متكبرة راضية فهى تعلم أن كل هذا المجهـود الذى يبذله الطلبة إنما يبـذلونه لها بل إنها تعلم أن شـارع الجنزورى ليس أقرب الطرق إلى مـدرسة فـؤاد الأول وأنهم إنما يمـرون منه لأجلهـا .. وتعلم أكـثـر من ذلك.. تعلم أنهـا أكثـر بنات الحى فـتنة ، وأنهـا حلم شبـابه ، ومطمع رجـاله ، وحسـرة شيوخـه .. وتعلم أيضـا أنها مـثار

أحاديث كثيرة بين أمهات الحى ونسائه ، وأن ليس كل ما يقال عنها يرضيها أو يرضى عائلتها ، وإن أكثر صديقاتها يزاملنها فى المدرسة ويسعين إلى صحبتها ، ثم يتحاشينها خارج المدرسة خشية أمهاتهن .

ولم يكن كل ذلك يهمها فى شىء .. لم يكن يهمها هؤلاء الطلبة الذين يحاولون إثارة اهتمامها بحركاتهم الصبيانية ، ولا هؤلاء الرجال الذين يفدون على البيت الواحد تلو الآخر يطلبون يدها للزواج .. ولا الأمهات والنساء اللاتى يتهامسن حولها ، ولا البنات اللاتى يصادقنها حينا ويتحاشينها أحيانا .. لم يكن يهمها شىء ، فهى تعيش بعيدا عن كل هذا فى دنيا خاصة بها ، وهى وحدها التى تعلم سماءها وأرضها وأسرارها ، وهى فوق ذلك واثقة فى نفسها كل الثقة ربما إلى حد الغرور .. واثقة فى جمالها ، واثقة فى ذكائها ، واثقة فى مواهبها .. واثقة من أنها تستطيع أن تحرك مدرسة فؤاد الأول كلها بطرف إصبعها ، وإنها تستطيع أن تثير فتنة بين رجال الحى برموش عينيها ، وإن نساء الحى لا يستطعن مهما طالت ألسنتهن أن يستغنين عن صداقتها وخطب ودها ، فهى تدعى دائما إلى « المقابلات » لتعزف على البيانو وتغنى « على أد الليل ما يطول » لسيد درويش ، أو « فيك عشرة كتشينة فى البلكونة » لعبد الوهاب ، أو « ارخى الستارة اللى فى ريحنا ، أحسن جيرانا تجرحنا » لمنيرة المهدية ، أو « يا نينة شفته من الشباك جدع حليوه بيتمخطر » .. إلى آخر هذه الأغانى التى تفضل سيدات العباسية سماعها ، رغم ظهور الأغانى الحديثة

كأغنية « يا وردة الحب الصافي » !!

وكانت تدعى دائما إلى حفلات الزار التى يقيمها ذوات الحي ، حتي إذا ما انتهى دور الأسطي الكودية وصبيانها ، واطمأن النساء إلى أن العفاريت قد فارقت أجسادهن ، ألححن عليها لتقوم وترقص ، فتتمنع قليلا ثم تهب واقفة فيلتف حولها النساء فرحات يربطن الحزام حول وسطها ، ويخلعن عنها حذاءها وجوربها ، فقد كانت لا ترقص إلا حافية القدمين ، ثم يتركنها للطبل لتتمايل على دقاته في إهمال بطيء مثير يخلع العينين من محاجرهما ، وتمد ذراعيها في استرخاء كأنها تتمطى فى فراشها صباح ليلة الزفاف ، ثم ترتعش وتهيم فى رعشتها كعود من الورد جن به الهواء عشقا فحاول أن يقتلعه ويفر به .

وكانت كل بنات الحي يعزفن على البيانو ويغنين ويرقص ، فقد كانت هذه الفنون من لوازم تربية الفتيات واعدادهن للزواج ، فى محيط العائلات الكبيرة التى تسكن حى العباسية.. ولكنها فاقت كل البنات فى العزف والغناء والرقص، حتى أصبحت « المقابلة » التى تخلو منها مقابلة فاشلة ناقصة لم تستكمل مباهجها ، وحفلة الزار التى لا ترقص فيها لا تستطيع صاحبتها أن تتباهى بها .. وكانت عائلتها كلها تدعى إلى هذه الحفلات من أجلها ، رغم أنها لم تكن عائلة فى مستوى العائلات الكبيرة ولا فى غناها ..

وكانت العائلة تفرح بهذه الدعوات ، وتعتبرها شرفا وكسبا كبيرا ، أما هى فكانت تحتقرها ، وكانت تحتقر عقليات نساء

الحي كله ، وتحتقر حفلات « المقابلة » التي تقيمها كل سيدة قادرة وتخصص لها يوما محددا معروفا من كل أسبوع أو من كل شهر ، تجتمع فيه لديها كل صديقاتها ويقضين المساء بين أكداس الشيكولاتة والملبس وأكواب « الشربات » ويتحدثن عن بنت فلان التى هربت مع سائق السيارة ـ وكانت حوادث هروب الفتيات مع سائقي السيارات الخصوصية منتشرة فى ذلك الوقت ـ أو يتحدثن عن فلانة « المساوعة » أو عن آخر أنواع العطارة التى تساعد على السمنة ، ثم تميل الزوجات بعضهن على بعض يتهامسن همسات مبتذلة لا يسمح للعذارى بالاستماع إليها ، بينما أفواههن تلوك حبات الفستق أو أطباق المهلبية المعطرة ، ثم ترتفع ضحكاتهن خليعة رنانة ، وكل منهن تحاول أن تجعل ضحكتها أشد خلاعة وأشد رنينا من غيرها حتى تبدو امرأة ذات أنوثة ناجحة ..

كانت تحتقر هذه الحفلات ، وتحتقر حفلات الزار ، وتحتقر هذه العقليات .. إنما كانت تلبى الدعوة إليها كملكة مكلفة بأن تؤدى واجباتها الرسمية حتى إذا ما انتهت منها عادت إلى دنياها الخاصة تعيش فيها وحيدة بين أفكارها وهمومها ..

وكانت لها أفكار وهموم أكبر منها وأكبر من سنها ، ولم يستطع جمالها وذكاؤها ولا ثقتها بنفسها أن تخفف منها شيئا ، ولم يستطع تهافت الشبان والرجال حولها أن ينسيها بعضا منها ، بل إن هذه الأفكار والهموم هى التى جعلتها لا تهتم بكل هؤلاء ، فقد كانت فى حاجة إلى إنسان تشكو له .. إنسان يرى فيها ما وراء جمالها وفتنتها .. إنسان يستطيع أن

يفهمها وأن يخفف عنها ، وأن يجفف الدموع التى تحبسها وراء ابتسامتها .. الدموع التى لم يرها أحد منذ زمن طويل ، لأنها لم تسمح ابدا لأحد أن يراها ..

واحد فقط خيل إليها أنه يستطيع أن يكون هذا الإنسان ..

إنه طالب آخر من طلبة مدرسة فؤاد الأول الثانوية ..

كان يسير أمام شرفتها كل صباح ، ممشوقا صارما يدق الأرض بقدميه كأنه يريد أن يشعل من تحتها النار ، ولم يكن يبتسم ولا يتكلم ولا يصاحب أحدا من زملائه الطلبة ، فإذا مر به زميل حياة فى سرعة حاسمة دون أن يتوقف عن سيره ، ودون أن يطمع الزميل فى كلمة منه أكثر من مجرد التحية .

كان يبدو كبيرا .. كبيرا جدا .. ولم يكن يرفع إليها عينيه أبدا ، ولم يحاول ابدا أن يبتسم لها ، بل إنها لا تدرى إن كان يحس بوجودها ، ويحس بأنها أجمل بنات الحى وأكثرهن فتنة وأنها مثار الأقاويل والإشاعات ، أو لا يدرى عنها شيئا ..

إنها واثقة من أنه لا يمر من شارع الجنزورى من أجلها كما يفعل بقية الطلبة ، فإن بيته يقع فى نفس الشارع ، وهو مضطر لأن يمر أمامها فى طريقه إلى المدرسة ، ثم إنه يسير على الرصيف المقابل ولم يخطىء مرة ويمر من تحت الشرفة حتى يكون أقرب لها ، وحتى ترى ابتسامته إن أراد أن يبتسم ..

وقد كان أمامه ألف طريق يوصل إليها لو أراد أن يصل ، فهى صديقة لأخته وتزورها كثيرا فى بيتها ، وتحضر « المقابلات» التى تقيمها أمه .. ولكنه لم يحاول أبدا أن يتخذ طريقا إليها ..

واكتفت هى بأن تعلم عنه أن اسـمه عباس ، وأنه طالب فى البكالوريا قسم أدبى ، وأنه يعـتكف كثيرا فى حـجرته ، ويقرأ كثيـرا ، ويكتب كثيرا ، وأنه من أفراد فـريق التنس بالمدرسة .. ولم تكن أخته نفسـها تعلم عنه أكثر من ذلك ، وكانت تتكلم عنه كأنه شىء مقدس ، وتخافـه أكثر مما تخاف أباها ، وتسرع فى عودتهـا من المدرسة حـتى ترى « أبيـه عباس » قـبل أن يدخل حجرته ، بل إن أمه نفسهـا لم تكن تتحدث عنه إلا بلقب « البيه الصغير » !!

ولم يكن لها منه إلا أن تراه كل صـباح وهو فى طريقه إلى المدرسة ، ولم تكن مجرد رؤيته كافية لأن تخرجها عن أفكارها وهمومها أو تجفف دموعها التى تخفيها وراء ابتسامتها ، وإنما كانت تنظر إليه كطالب يختلف عن بقـية الطلبة ، وشاب يختلف عن بقية الشبان ..

وكـان عبـاس يمر أمـامهـا فى ذلك اليـوم وهى واقفـة فى شرفـتها عندمـا برزت فى باب الشرفـة امرأة سمـينة مكتنزة الوجـه لا تزال آثار المساحـيق على وجهـها منذ نامت بهـا فى الليل ، وصرخت من ورائها :

– ياللا يا بت بلاش مرقـعة فى البلكونات .. امـشى انجرى على المدرسة ..

والتفتت إليها دون أن تتحـرك من وقفتها ، وقالت فى هدوء وبين شفتيها ابتسامة ساخرة :

– حاضر يا نينة ..

وصرخت المرأة مرة ثانية :

- حاضر فى بوزك .. يا بت امشى اتحركى !
وقالت فى هدوء أيضا :
- يا ستى حالحق .. ماتخافيش .
- لحقك ترمواى لما يدهسك .. دى مالها يا خويا متسمرة كده .. مش مكفيك الفضايح اللى جرّاها علينا ..

ومدت المرأة ذراعها السمينة ، وجذبت بها الفتاة إلى داخل الحجرة .. وانقادت لها الفتاة فى استسلام وهى لا تزال تحتفظ بابتسامتها الساخرة ..

وكانت هذه الابتسامة تغيظ المرأة ، وكانت تحس بما فيها من معانى الاحتقار والتحدى ، فكانت تجن .. وقد جنت هذا الصباح أيضا فرفعت كفها الغليظة وهوت به على وجه الفتاة فى عنف ، ثم سحبتها بعد أن تركت آثار أصابعها بارزة حمراء فوق الوجنة السمراء الملتهبة ..

ولم تتحرك الفتاة ، ولم ترفع يدها لتضعها على موضع الصفعة ، ولم تسحب ابتسامتها الساخرة ، بل ظلت واقفة مكانها تنظر إلى المرأة بعينين ساخرتين ملؤهما التحدى والاحتقار ..

ودخل رجل فى الخمسين من عمره ذو كرش ضخم ، ورأس أصلع ، وهو يرتدى القميص والبنطلون ويصلح رباط عنقه استعدادا للخروج .. وقال فى صوت أجش :
- إيه اللى حصل عالصبح ، يا فتاح يا عليم !
وصرخت المرأة :
- أنا خلاص حاتجنن .. البنت مقصوفة الرقبة دى حاتجننى !

ومد الرجل ذراعه ودفع الفتاة نحو الباب ، قائلا :

- اصطبحي .. واختشي على عرضك .. يالاّ على المدرسة الله لا يرجعك !

وخرجت الفتاة ، وقبل أن تخرج ، أطلت برأسها ونظرت إلى المرأة والرجل وهما يشيعانها بنظراتهما الغاضبة ، وقالت ضاحكة في سخرية :

- أوريفوار !!

ثم أغلقت الباب وراءها قبل أن يلحق بها أحدهما !

ولم تكد تخطو فوق درجات السلم حتى اختفت ابتسامتها وتجهم وجهها ، ورفعت كفها ووضعتها فوق مكان الصفعة ، ثم فرت من عينيها دمعتان ساخنتان جففتهما بسرعة كأنها تخجل منهما ..

لقد قررت من زمن طويل ألا تسمح لأحد بأن يرى دموعها وألا تشكو ، أو تعتذر ، أو تستعطف .. قررت أن تتحدى وأن تعاند وأن تقابل كل ما يجرى عليها بالسخرية والاحتقار . وخيِّل إليها أنها بذلك تستطيع أن تنتصر وأن تنتقم وأن تصون كرامتها ..

ووقفت على عتبة الباب الخارجى قبل أن تخطو إلى الشارع، وقد عقدت ما بين حاجبيها ، وأطلقت نظراتها إلى بعيد دون أن ترى شيئا .. ثم اتخذت قرارا ، خيِّل إليها أنه قرار حاسم .. ثم سارت فى خطوات مرتعشة نحو محطة الترام ..

وكان قرارها أن تهرب من هذا البيت ..

ولم يكن ما يجرى لها يستحق أن تتخذ له هذا القرار ،

ولا يستحق كل هذا العناد ، فالآباء والأمهات من حقهم دائما أن يضربوا بناتهم كوسيلة للتربية والتهذيب ، وكان كل آباء وأمهات الحى يضربون البنات بين حين وآخر ، فلم تكن هى مستثناة منهن ، ثم إن الوقوف فى الشرفات ـ فى ذلك العهد وفى حى العباسية ـ كان محرما على البنات إلا إذا وقفن يشيعن ميتا من أهل البيت أو يستقبلن عروسا وافدة ، أو إذا كان فى الطريق حادث أو مناسبة تستحق المشاهدة .. أما أن تقف البنت فى الشرفة لمجرد أن تطل على طلبة مدرسة فؤاد الأول .. فهذا هو العيب المحرم !!

لم يكن ما يجرى لها يمكن أن يثير فى صدرها وفى رأسها كل هذه العواصف ، لو أن من ضربتها كانت أمها ، أو كان من يضربها ويهينها هو أباها .. ولكن هذه المرأة ليست أمها رغم أنها تناديها بلفظ « نينه » ، وهذا الرجل ليس أباها رغم أنها تناديه بلفظ « بابا » .

ورغم ذلك فقد كان لها أب وأم كلاهما على قيد الحياة ..

●●●

كان أبوها قد طلق أمها قبل أن تولد .. ولم يكن هناك سبب واضح للطلاق إلا أن أباها لا يستطيع أن يكون زوجا مسئولا عن بيت وامرأة وأولاد ..

وقد ولدت بعد أن وقع الطلاق بشهور .. وحاولت الأم أن تستعيد بها الزوج الشارد ، وعاد الزوج فعلا ولكنه لم يمكث إلا ريثما يقبل المولود الجديد ، ويتلقى تهانى الأصدقاء ويطمئن

على صحة مطلقته .. ثم فر مرة ثانية إلى دنياه الواسعة الطليقة حيث لا قيود ولا مسئوليات ..

وكان الأب من متوسطى الحال .. والأم الفقيرة لا تملك شيئا إلا هذا الزوج الشارد ..

واحتار الأب والأم ماذا يفعلان بالبنت ..

ولم يفكر الأب طويلا ، فلم يكن يحتمل طول التفكير .. وفكرت الأم وهى جالسة تنهنه ابنتها فوق ركبتيها ، تحاول أن تسكت صراخها الذى لم يكن يسكت أبدا .. إنها لا تستطيع أن تعيش العمر وابنتها فوق ركبتيها ، كان يجب أن تخرج لتبحث عن عمل تعول به نفسها أو عن زوج يعولها .. ولكن أين تضع البنت ؟

وحملتها ذات يوم ووضعتها فى ملجأ للأيتام بعد أن حصلت على توصية من طبيب مشهور .. وكانت تعتقد أن هذا هو الحل الوحيد ..

ولكن الأب عندما علم ، تحرك قلبه الطيب ، ولم يهن عليه أن تنشأ ابنته فى ملجأ للأيتام بينما هو لا يزال على قيد الحياة .. ثارت فيه نخوة لم يفقدها ، وأصل طيب كريم كان دائما يعتز به . فذهب إلى الملجأ وطالب بابنته ورحب الملجأ بمطالبته فقد كان كل من فيه يريد أن يتخلص منها ومن صراخها الذى لا يسكت أبدا .

وحملها أبوها إلى بيت أخته واتفق معها على أن تحتضنها نظير تنازله عن نصيبه فى ريع خمسة أفدنة بإحدى قرى

الفيوم ، ونصيبه فى ربع بيت مهدم ورثه عن أبيه فى حى « الخرنفش » ..

وقبلت العمة .. وربما ندمت على قبولها بعد الليلة الأولى عندما ارتفع صراخ البنت ولم يسكت أبدا .. لم تكن تبكى ، بل كانت تصرخ صراخا قويا حادا ليس من عادة الأطفال ، وكأنها تخاف شيئا ، أو تحاول أن تفر من شىء ، أو كأنها تريد أن تنزع روحها من حلقها لتنطلق بها بعيدا .. بعيدا جدا .. فى دنيا أرحم من هذه ، وأرض أكثر حنوا على الأطفال .

وكان زوج العمة رجلا عصبى المزاج .. فكان يقوم فى الليل لاعنا هذه البنت ، لاعنا أمها وأباها ، مقسما أن يقذف بها من النافذة إن لم تسكت عن الصراخ .. وكأنما البنت كانت تعانده فكان كلما تمادى فى لعناته اشتدت فى صراخها .. ويظل اللعن والصراخ يزعجان الليل حتى تعد العمة مغلى الخشخاش ـ أو « حب النوم » كما كانوا يسمونه ـ وتخلطه باللبن وتسقيه للبنت فيسرى المخدر فى أعصابها اللينة الضعيفة ويبدأ صراخها يخفت شيئا فشيئا وهى تقاوم وتحاول أن تفتح شفتيها لتوالى الصراخ .. إلى أن تنام مخدرة وصرختها ميتة فوق شفتيها ..

وقد أكثرت العمة من إرضاع البنت اللبن المسموم حرصا على راحة زوجها ، حتى ضعفت وهفتت وهزلت ، واصفر وجهها ولم يعد فيها من معالم الحياة إلا صرختها الضعيفة كلما افاقت برهة من تأثير المخدر .. إلى أن أصابت الحمى أمعاءها ، فتقطعت أنفاسها وترددت روحها فى حلقها كلما

حـاولت أن تنطلق انطبـقت دونها شـفـتاها ، وكـلما انفـرجت الشفتان حاولت الروح أن تنطلق ..

ولم تصنع العمـة شيئا إلا قليـلا من البخور أحرقـته حول الطفلة المريضة وخرقـا تغمسها فى ماء الخل ثم تضـعها فوق الرأس الصغير المحموم .. وتركت الباقى على الله ..

وجـاءت الأم فى زيارة عـابرة ، ورأت ابنتـهـا تكاد تموت ، فحـملتهـا صامتـة دون أن توجه لومـا لأحد ، ودون أن تشكو أحدا إلى الله ، ودون أن تترك دمـوعها ترطب حرقـة قلبها على حال ابنتـها ، فقـد كانت أمـا ضعيـفة .. ضعـيفة فى فـقرها ، ضعيفة فى وحدتها ، ضعيفة فى حيرتها مع الأقدار ..

حملتـها إلى حيث تقيم فى بيت أهلهـا بحى الظاهر ، ومرت بهـا على حـانوت صائغ حـيث باعت سـوارها الذهبى لتـدفع أتعــاب الطـبــيب وثمن الـدواء ، ثم جلست عـلى الأرض فى حجـرتها الضيقـة العارية ثلاثة أسابيع مـتوالية وابنتهـا فوق ركبتيها تناولها الدواء ..

واستقرت الروح فى صدر الطفلة ، وبدأت تصرخ من جديد وبدأت الأم تغـفو ثم تصـحو منـزعجـة كلما سكت الصـراخ ، وكأنها مـسافر فى قطار الليل ينام على دقات العـجلات فوق القضبان ولا يصحو إلا فى المحطات ..

وكأنما كانـت الطفلة تستمد حـياتها من صراخـها ، وكأنما كان يكفى أن تتركـها تصرخ لتعيش .. فقـد بدأت دماء الصحة والعافيـة تكتنز فى وجنتيها وبدأ وزنهـا يزداد حتى فاقت فى سـمنتهـا جـميع أطفـال الحى ، ولكن الأم الضـعـيفـة لم تكن

تستطيع أن تحتفظ بها طويلا ، فقد كانت لا تزال فى حاجة إلى أن تخرج لتبحث عن عمل تعول به نفسها ، أو عن زوج يعولها ، فحملت ابنتها من جديد إلى بيت العمة ..

وترددت العمة فى قبولها هذه المرة ، ولكنها تذكرت ريع الخمسة أفدنة وإيجار البيت المهدم فى حى الخرنفش ، الذى يتنازل لها الأب عنهما نظير حضانة البنت .. تذكرت وقبلت ..

وعاد الصراخ يحتبس بين شفتى الطفلة .. ولكن عمتها لم تلجأ هذه المرة إلى مغلى الخشخاش لتسكتها ، بل كانت أحيانا تضربها حتى يرتسم الرعب فى عينيها الصغيرتين البريئتين فتكف عن الصراخ مبهورة الأنفاس ، وأحيانا ترسل بها لتنام مع الخادمة فى غرفة الغسيل فوق السطح ، وأحيانا كانت تحبسها الساعات الطوال منفردة فى إحدى حجرات البيت ، فتظل تصرخ وتصرخ حتى تسكت إعياء من طول ما صرخت ..

ومرت بها الأيام فى صراخ حتى تفتح وعيها ..

وكان أول ما وعت أن اسمها « أمينة » ، وأن هذه المرأة ليست أمها ، وأن هذا الرجل ليس أباها ، وأن هؤلاء الصبيان الثلاثة ليسوا إخوتها ولكنهم أولاد عمتها ..

وكانت العائلة متوسطة الحال .. فالزوج موظف فى الدرجة السادسة يملك بجانب مرتبه ريع ثلاثة أفدنة ورثها عن أبيه ، والزوجة ابنة رجل عاطر الذكر مات عن إرث ضئيل لا يتجاوز هذه الأفدنة الخمسة وهذا البيت المهدم الذى تنازل لها أخوها عن نصيبه من ريعهما ..

وكان يمكن أن تكون العائلة أسوأ حالا لولا الأصل الطيب الذى يحفظ لها مقامها بين بقية العائلات ، ولولا أن الزوجة كانت على قسوتها حادة الذكاء تستطيع أن تدبر شئون بيتها بحيث تحتفظ دائما بالمظهر اللائق ، بل إنها كانت تغالى أحيانا فى الاحتفاظ بهذا المظهر حتى لو ضحت بالكثير من راحتها وراحة زوجها وأولادها .

وكان البيت يقع فى « حارة نصير » بالعباسية الغربية ..

وفى حارة نصير قضت أمينة طفولتها المبكرة .. وكانت طفولة عنيفة ، فإن شعورها بأنها ليست بين أبيها وأمها كان يجعلها تقف دائما موقف الدفاع عن نفسها ، وكان يجعلها متحفزة دائما ، متنمرة دائما ، معارضة دائما ، وكانت دائما تهرب من البيت لتقضى أوقاتها تلعب فى الحارة ..

كانت تهرب إلى عم فرج بائع « الدندرمة » الذى أقام لنفسه بيتا من الصفيح فى الأرض الفضاء المجاورة ، فتشترك معه فى إدارة الوعاء الكبير بين قطع الثلج ، ثم تقف وراءه وهو يصلى تقلده فى حركاته .. ثم يهديها قليلا من « الدندرمة » فى كوب من البسكوت تلعقها بلسانها وتخرج لتذهب إلى بيت الحاج حسنين الفران تتسلى بالنظر إلى أرغفة الخبز وهى تدخل فى فوهة الفرن الكبير وتخرج منه ، ثم تصعد إلى بيت الحاج الذى يقع فوق الفرن لتلعب مع بناته وزوجاته الثلاث الصغيرات وتأكل معهن شطائر من العيش الطازج الساخن محشوة « بالدقة » .. ثم تهرع إلى الحارة لتلعب مع الصبية ، وكانت تفضل اللعب معهم على اللعب مع البنات ، وتلعب نفس

ألعابهم فكانت تلعب « المضرب والعصفورة » وتلعب « النحلة أم علقة » وتلعب « عسكر وحرامية » وكانت تتزعم هؤلاء الصبية وتتشاجر معهم وتنتصر فى معاركها .. بل إنها عندما بدأت تذهب إلى مدرسة «سيدى كمال الأولية » مبكرة وقبل موعد بدء الدراسة بوقت طويل لتشترك مع الصبية الذين كانوا يذهبون إلى « مدرسة البرامونى الأولية » فى القفز على عربات الترام ، عند مخزن الشركة فى آخر شارع غمرة ..

ورغم هذا العنف الذى صاحب طفولتها ، فقد كانت رقيقة العاطفة ، وكانت دائما نضرة كالوردة البرية ، وكانت ذكية غريبة فى ذكائها بين الأطفال ، وكان الجيران وأولاد الجيران يحيونا ويحتفون بها ويتمنونها ، ثم إذا ما أدرات لهم ظهرها مصمصوا الشفاه حسرة عليها وبدأوا يروون القصص عن أمها .

ولم تكن تسمع شيئا من هذه القصص ، ولم تكن تفهمها لو سمعت شيئا منها ، فكانت تنتقل بريئة طلقة من بيت إلى بيت ومن حارة إلى حارة ، ولا تعود إلى بيتها أبدا إلا إذا أرسلوا وراءها الخادمة فتكد فى البحث عنها حتى تشدها شدا إلى البيت ، وهناك تجد عمتها فى انتظارها والشبشب فى يدها تضربها به حتى تمل سماع الصراخ ..

ولو أن أى طفل فعل بعض ما كانت تفعله لعاقبه أهله بالضرب وبأشد واقسى ما كانت تضرب ، بل أولاد عمتها أنفسهم كانوا يضربون فى مثل هذه المناسبات وبالشبشب أيضا .. ولكن شعورها أنها لا تعيش بين أبيها وأمها ، كان

يترك فى صدرها جرحا عميقا صامتا ينزف باستمرار .. ولم تكن تحس فى طفولتها بهذا الجرح ولا بهذا النزيف ، كل ما كانت تحس به أنها تكره أن تكون فى هذا البيت ، وتكره أن تخضع لعمتها أو زوج عمتها .. حتى أولاد عمتها لم تكن ترتاح إلى اللعب معهم كما ترتاح إلى اللعب مع بقية الأطفال ، وربما كانت تغار منهم وتحسدهم على عيشتهم بين أمهم وأبيهم ، وكانت تحس بهذه الغيرة كلما نال واحد منهم بعض التدليل أو جاءوا له بشيء جديد ، مهما كان نصيبها من التدليل ومن الأشياء الجديدة أكبر من نصيبه ..

وبدأت متاعبها الحقيقية عندما بلغت التاسعة من عمرها وأخذت الأنوثة تشع فى جسدها ، فقد بدأت تحس بالجروح المنطبعة فى صدرها ، وبالنزيف الذى يدفع مختلف الأحاسيس لتعصف بها .. ثم أنهم حرموا عليها اللعب فى الحارة والاختلاط بالصبية إلى هذا الحد ، وأصبحت لا تخرج إلاّ فى صحبة عمتها ولا تذهب إلى مدرسة « العباسية الثانوية » إلا ومعها خادم أو عم عبدالله البواب ..

بدأت القضبان تضيق من حولها ، وبدأت تضيق بها .. ولم يخفف من ضيقها دروس البيانو .. فقد أجادت العزف عليه فى غير وقت الدراسة ـ كما أجادت الغناء والرقص .. ولم يخفف عنها استذكار دروسها المدرسية ، فقد كانت تلتقطها بذكائها دون حاجة إلى استذكار ، ولم تخفف عنها « المقابلات » ، و « الزيارات » التى كانت تصحب عمتها إليها .. فقد كانت أحاديث صديقات عمتها وأحاديث بناتهن تزيد فى

ضيقها ، ولا يخفف عنها تهافتهن حولها لتعزف أو تغنى أو ترقص ..

كانت تريد أن تنطلق ..

وقد انطلقت عدة مرات .. كانت تذهب إلى الحقول فى شارع بين الجناين ، تقطع أعواد الجرجير والبقدونس وتمضغها بين أسنانها ، وربما لحق بها صبى من أصدقاء طفولتها ، يسير بجانبها مطأطىء الرأس خجلا من أنوثتها المبكرة وخجلا من أحاسيسه التى تثيرها هذه الأنوثة ، بينما هى لا تحس بأنه أثار منها شيئا إلاّ شعور الزمالة والصداقة ..

ولما انتقلت العائلة إلى شارع الجنزورى بالعباسية الشرقية أصبحت تنطلق فى الصحراء الواسعة المتصلة بصحراء المقطم ، والتى تسمى « أرض العيون » .. وظلت تنطلق فى هذه الصحراء تسير وحيدة هائمة بين أفكارها وهمومها تنتزع قدميها من فوق الرمال فى عنف وكأنها تنتزع نفسها من الهوة السوداء العميقة التى انفتحت فى صدرها .. إلى أن شاهدت مرة بعض الصبية يقذفون فتى وفتاة بالحجارة لا لشىء إلا لأنهما كانا يسيران فى هذه الأرض متشابكين يتناجيان .. فلم تنطلق من يومها فى أرض العيون !!

وكانت فى كل مرة تعود من انطلاقها لتستقبلها عمتها بالشبشب ، وكان أحيانا يتولى استقبالها زوج عمتها ، وكانت فى مبدأ الأمر تبكى وتصرخ وتستغيث وهى تحت الصفعات وضربات الشبشب ، ثم بدأت تدافع عن نفسها وتصرخ وتصد

الضربات بذراعيها ، وتجادل عمتها وزوج عمتها ، وقد صاحت في وجههما يوما :

– أنا حرة .. أعمل اللى أنا عايزاه .. ما حدش له دعوة بيّه .

وأخرسها كف زوج عمتها بصفعة على شفتيها ، وردت عمتها :

– حرة !! حر لما يلهفك ، قليلة التربية !..

وعندما هدأت أخذت تكرر بلهجة ساخرة : أنا حرة .. أنا حرة .. أنا حرة !!

ثم انطلقت دموعها مرة أخرى ..

هل هى حرة ، وهل يقدر لها يوما أن تكون حرة تفعل ما تريد ؟.. متى ستخرج من هذا البيت ؟ وإلى أين ؟..

إنها لو خرجت منه ، فستخرج إلى بيت زوجها .. رجل كزوج عمتها يحدد حريتها بأربعة جدران وبالمقابلات والزيارات وحفلات الزار .. أو رجل آخر .. وأحمر وجهها وهى تذكر هذا الرجل الآخر .. فقد كان فى حياتها رجل آخر فعلا .. رجل تكرهه وتشمئز منه ، وستكرهه طول حياتها ، وتشمئز منه طول حياتها ..

كانت فى العاشرة من عمرها، وكانوا يسمحون لها بالتردد على بيت الجيران الذين يسكنون فى الشقة المقابلة فى نفس البيت ، وكانت تتردد عليهم كثيرا لتجلس مع البنات هربا من مضايقات عمتها ،، وكان لهم أخ كبير ، يكبرها كثيرا ، وربما كان فى الثلاثين من عمره ، وكان يهتم بها ويجلس إليها طويلا

يروى لها القصص ، ويناقشها فى دروسها المدرسية ، ويدعوها أحيانا إلى حجرته ليريها بعض الصور أو بعض المجلات .. وكانت تذهب إليه مطمئنة ، ولم يكن هناك ما يدعوها إلى الريبة ، فهى نفسها لم تكن تعلم بعد ما يمكن أن يثير الريب ..

وربما لاحظت أنه يقرب جسده من جسدها أحيانا ، وأحيانا يلف ذراعه حول خصرها ويضمها ضما خفيفا ، وأحيانا يمسح على شعرها بكفه .. ولم يكن كل ذلك يثير فيها شيئا ، إلى أن قبلها فوق وجنتيها يوما ، وكانت فى حجرته تتصفح بعض المجلات .. وكان يمكن أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ، فهى لم تحس بأكثر مما تحس به عندما يقبلها أحد أقاربها أو أصدقاء زوج عمتها ، ولكنها عندما سكتت على القبلة الأولى ، قبلها قبلة ثانية ، ثم ضمها إلى صدره .. ثم قسا عليها بذراعيه وهو يضمها حتى أحست بضلوعها تكاد تتحطم ، ثم دس شفتيه بين شفتيها حتى شعرت بهما بين أسنانها ، بينما كفه استقرت فوق صدرها تعبث به وتكاد تمزقه ، وأنفاسه كريهة متلاحقة كأنها شخير نائم تلفح وجهها ..

وأحست أنها تختنق .. إنها ستموت .. وخلصت شفتيها من بين شفتيه ، وعندما عجزت أن تخلص نفسها من بين ذراعيه عضته بقسوة وبكل ما أوتيت من قوة ، فصرخ وأطلقها .. ولكنه كان كالذئب الهائج فحاول أن يلحق بها ثانية وأن يحاصرها بين مكتبه والحائط ، فرفعت إناء زجاجيا

كبيـرا وحطمته فوق رأسه .. وفرت هاربة والدم يكســو وجهه كـأنـه لهب سـائـل اندفع من الجـحـيم الذى سلـطه الله على المجرمين ..

ولم يدر أحد بهـذا الحادث فى حيـاتها .. ولكنهـا ظلت كلما تذكرته ، أصابتها قشعريرة كأنهـا تشمئز من نفسها ، بل إنها تسـتطيع حـتى اليـوم كلما تـذكرت أن تشم رائحـة الأنفـاس الكريهة ، فتكاد تصاب بالغثيان ..

هذا الحادث قتل فيها ما يمكن أن يثور من رغبة إلى رجل .. أصبحت تكره جـميع الرجال إذا ما أرادوها كامـرأة وأصبحت أنوثتهـا المثيـرة التى تبدو فى قـوامها الفـائر ، تخـفى تحتـها برودة جامـدة فى إحسـاسها كـأنثى .. ولكنها منـذ ذلك اليوم علمت أنها لم تعد طفلة ، وإن فيها شـيئا أكثر مما فى الأطفال ، وعرفت أنها جميلة ، وأنها مثيرة .. وأن الصبية لن يكتفوا منها اليوم بـأن تلعب معـهم « المضرب والعـصفورة » أو « عـسكر وحرامية » ..

هل يقدر لها أن تتزوج مـثل هذا الرجل ، وأن تعطى نفسها كما أراد هذا الرجل أن يأخذها ..

هل تكون حرة يومـا .. حرة من هذا البـيت ، وحرة من أى زوج ؟!

وأين المفر ؟!.

إنها تتسـاءل منذ زمن طويل ، وقد عـودت نفسها أن تحتفظ لنفسـها بتساؤلها ..

ولم تعد تبكي ولا تصرخ ولا تستغيث .. أصبحت تقابل ضربات عمتها وزوج عمتها في برود ، وتتحمل آلام الضرب وهي تضغط على أعصابها بابتسامتها .. وقد أفلح هذا الأسلوب فكانت عمتها تجن وهي تضربها فلا يبدو عليها ضرب ، وزوج عمتها سقط يوما مريضا من كثرة ما ضربها دون أن تهتز أو تستغفر أو تتنازل عن ابتسامتها الساخرة ..

إلى أن كان ذلك اليوم الذي قررت فيه الهرب ..

وسارت حتى وصلت إلى محطة الترام ..



٢

وقفت على محطة الترام تتساءل : إلى أين ؟

إلى أين تهرب ؟.

ومر بها ترام الخليج « نمرة ٢٢ » الذى يحملها كل صباح إلى مدرسة السنية الثانوية، فلم تلمحه، ومر بها مرة ثانية وثالثة ورابعة و هى لا تزال واقفة على محطة الترام تائهة فى تساؤلها وفى حيرتها، وتركت أصحاب المحال الواقعة على

جانبى شارع العباسية، والطلبة والموظفين الذين يمرون بها، يعتقدون أنها لابد أن تكون على موعد مع شاب ما دامت لم تركب الترام الذى يحملها إلى مدرستها !.

هل تهرب إلى بيت أبيها ؟.

إنه يعيش وحيدا منذ طلق أمها .. يعيش سعيدا فى دنيا خلقها من فلسفته لا يحب أن يخرج منها ولا يسمح لأحد بالدخول فيها، وقد احبته دائما .. أحبت ضحكاته المتتالية التى يخيل لك معها أن كل شىء فيه يضحك، وأحبت حديثه اللاهى الذى لا يأخذ به أمرا من الأمور مأخذ الجد، وأحبت صورته وقوامه ورقة عواطفه تمنت لو تلتقى برجل مثله لتزوجته .. كانت فخورة به، وكان بعض الناس يتهمونه بأنه عابث وبأنه مجنون، أما هى فكانت تعتبره سيد العقلاء وسيد الرجال ..

وكان يأتى لزيارتها فى بيت عمتها بين حين وآخر، فتكاد تطير من الفرح للقائه ، ثم تتعلق بعنقه وتجلس على ركبتيه وتدفن رأسها فى صدره ، وتهدأ .. كأنها تنام بعد أرق طويل متعب، أو كأنها تستظل فى ظل شجرة وارفة حنون بعد طول المسير فى حرقة الشمس .. وكانت تحس أنها تريد أن تبقى هكذا جالسة على ركبتيه ورأسها فوق صدره، العمر كله، وتتمنى لو خلت الحجرة من عمتها وزوج عمتها وبقية العائلة التى التفت تحتفى بأبيها، وأن يترك لها وتترك له، فهو الشىء الوحيد الذى تملكه، أنه أبوها كما أن الرجل الآخر أب أولاد عمتها .. أنها تريده لها وحدها ولو لهذه الفترات القصيرة التى يزورها فيها .. ولكن عمتها لم تكن تتركها أبدا لها .. كانت

دائما معهما، وكأنها كانت تخشى منها أن تشكو له شيئا أو تطلب منه مطلبا لا تدرى به ..

ولم تكن تشكو له أبدا .. ولم تسمح لعواطفها ولا للجروح المنطبعة فى صدرها أن تزعجه فى دنياه السعيدة .. كانت تخاف عليه من آلامها ومن عمومها ومن دموعها التى تذرفها فى وحدتها، وكانت تعلم مدى رقة عواطفه ومدى حبه لها . وتعلم أنها لو باحت له ببعض همها لحطمت حياته كلها .. بل إنها صفحت له تخليه عنها لعمتها منذ ولدت، وكانت تعتقد أن زواجه بأمها، وانجابه لها، ليس سوى خطأ غير مقصود منه لا يمكن أن يلام عليه، فهو لم يخلق ليكون زوجا وأبا بل خلق ليكون طائرا حرا مغردا، أن يوضع فى قفص، فإذا وضع فيه فمن حقه أن يفر منه .. ثم كانت تعلل حرصه على ابقائها فى بيت عمتها، بأنه يخشى عليها من فلسفته فى الحياة، ومن عيشته التى لا يمكن أن تنشأ عليها فتاة، وكانت تعتقد أنه بتخليه عنها إنما يضحى بعواطفه وبحبه لها، وأنه يحرم نفسه منها بقدر ما هى محرومة منه، ويتعذب فى بعدها عنه بقدر عذابها فى بعده عنها .

ولم يكن أيضا تطلب منه شيئا ابدا، لم تطلب منه يوما ثوبا، ولا لعبة، ولا حلية، وكان احيانا يحمل لها عندما يزورها صندوقا من الشيكولاته أو قطعا من «الجاتوه» ، فتوزعها أمامه على أولاد عمتها حتى تشعره بأنها تحبهم وأنها سعيدة فى حياتها معهم فيطمئن إلى هنائها .. بل إنها عندما كبرت وعلمت أنه تنازل عن بعض حريته وقبل وظيفة فى الحكومة لا لشىء

إلا ليستطيع أن يدفع لعمتها نفقات تربيتها، التى تنازل فى سبيلها من قبل بكل ما ورثه عن أبيه .. عندما علمت ذلك حملت نفسها وزرا لا ذنب لها فيه، واعتقدت إنها كلفته أكثر مما يطيق، وحملته مسؤلية كان فى غنى عن أن يحملها لو لم ينجبها ..

إنما كانت عمتها هى التى تشكو له .. كانت تشكو له «شقاوتها وقلة ادبها » على حد تعبيرها، وتطلب منه أن ينهرها ويؤدبها، فكان يفتعل مظهر الجد، ويقلد صوت الرجل الحازم والأب الصارم و « يشخط » فيها بكلمات اقرب إلى الهزر، ثم يهمس فى أذنها :

– ولا يهمك !!..

ويقبلها خلسة، فتضحك وتزداد إلتصاقا به وتعلقا بعنقه .

وكانت عمتها هى التى تطلب منه دائما .. ولم يكن يكفيها ابدا ما تطلبه، وكان يجيب كل طلباتها حرصا منه على راحة ابنته وهنائها، ولأنه لم يشك أبدا فى اخته ولا فى زوجها، ولم يكن من عادته أن يشك فى أحد ..

إلى هذا الحد كانت تحب أباها ..

فهل تهرب إلى بيته .. هل تقتحم دنياه الخاصة لتفسدها عليه وتشقيه وتشقى نفسها معه ؟!..

وهزت رأسها كأنها تقول : لا .. إنها ارحم به من رحمتها بنفسها !!.

هل تهرب إلى بيت أمها ؟.

وانطلقت فى صدرها عواطف مهزوزة غير واضحة .. فهى

لم تستطع أبدا أن تحدد عـاطفتها نحو أمهـا فى وضوح .. إنها تحـبهـا ـ وهذا لاشك فيـه ـ ولكن هذا الحب له طابع خـاص ، وليس حبا مطلقا، أنما فيـه دائما شىء من الغموض وشىء من القلق وشىء من الشفقة، وشىء من الشعور بالبؤس والذلة ..

لقد تزوجت أمهـا بعد أن طلقت من أبيها، وبـعد أن ولدتها، بسنوات قليلة .. تزوجت رجـلا غنيا واسع الثراء كبـير الاسم، ولا يدرى أحد بالضبط كيف تزوجته أو كيف التقت به .. وهى تحس منذ صـباها بأن هناك همـسا كـبيرا حـول هذا الزواج، وتحس بأنهـا كلما أدارت ظهـرها دار الحديث عن أمـها، وربما تركت هذه الهـمسات وهذه الأحـاديث أثرا فى نفسـها جـعلها تلتفت فى عنف وتعقد ما بين حـاجبيها وتطلق نظرة حادة من عينيـها، كلمـا جاء ذكر أمـها فى حديث عـادى، وكأنهـا مكلفة بأتخاذ موقف الدفاع كلما ذكرت أمها، أو كأن هناك شيئا جنته أمـها يسـتحق أن تدافع عنـه، رغم أن أحدا لم يفـسر لهـا أبدا فحـوى هذه الهمسـات، وأحدا لم يردد أمـامها حـديثا من هذه الأحاديث التى يخيل إليها أنها تدور وراء ظهرها ..

وقد رأت هذا الرجل الذى تزوجته أمها .. عجوزا مهدلا، فظا غليظا، كريه المنظر كريه الحـديث، ترتسم القسوة والجشع فى عينيه الضيقتين وانفـه المشوه ووجهه المنفوخ .. وأشفقت على أمها من هذا الرجل، وأختلج صدرها بهذه الشفقة وهى لا تزال بعد طفلة صغيـرة، وكان مرآى أمها يزيدها شفقـة عليها، فهى رغم مظاهر الثراء التى يحيطها بها زوجها لا تزال امرأة فقيرة كما كـانت دائما .. فقيـرة النفس، ضعيفـة، طويلة الصمت، فى

عينيها انكسار وانطواء، وكانت تجلس مع عمتها فلا تبدو لها شخصية ولا قوة، بل كانت شخصية العمة تطغى عليها وتمحوها حتى لا يكاد أحد يحس بوجودها .. وكانت هى تجن من هذا الضعف الذى تبدو به أمها، كانت تريدها أما قوية تملى إرادتها على عمتها وتملأ المكان الذى تحل فيه بشخصيتها ..

وكانت تكره مظاهر الثراء تحيط بأمها .. وكانت الأم تأتى لزيارتها فى حارة نصير حيث كانت تقيم مع عمتها، وهى راكبه سيارة فخمة كبيرة يقودها سائق أنيق، وكان دخول مثل هذه السيارة إلى حارة نصير حدثا هاما، فتطل النساء من النوافذ، ويخرج عم حسنين الفران من داخل الفرن، ويميل عم فرج بائع الدندرمة فوق عربته ويمد عنقه، ويلتف الأطفال كلهم حول السيارة يتعلقون بها وهم يصرخون ويهللون، وهى نفسها كانت - وهى طفلة - من هواة التعلق بالسيارات وعربات الحنطور والكارو التى تدخل الحارة، ولكنها عندما كانت ترى سيارة أمها تنكمش على نفسها وتطاطىء رأسها كأنها تخجل منها، وكأنها كانت تشعر بالثمن الفادح الذى تدفعه أمها لتركب مثل هذه السيارة ..

وقد ظل هذا الشعور يكبر معها على مر الأعوام .. شعور الشفقة على أمها والرثاء لها، ولكنها لم تفصح أبدا عن هذا الشعور، ولم تحاول أمها أبدا أن تروى لها شيئا من قصتها، حتى بعد أن أصبحت شابة ناضجة تستطيع أن تفهم احاسيس الأنثى وتقدر ما يلم بها .. أنما كانتا - الأم والبنت - اشبه بغريبتين جمعهما قطار الحياة صدفة فأخذتا تتبادلان الحديث

بين حين وآخر دون أن تعرف احداهما الأخرى ..

وترك حال أمـها فى نفســها كرها عجـيبا للأغنيـاء .. كانت تكرههم جميـعا وتكره سيارتهم وقـصورهم، وكانت ترى فى كل منهم صورة لزوج أمهـا، وترى فى كل منهم عدوا يجب أن تدافع عن نفسها أمـامه قبل أن يضعها فى سيـارته أو يضعها فى قصره، ويحيلها إلى امـرأة فى مثل حال أمها .. ورغم ذلك فقـد كانت تحب الحيـاة الهنية، وتعـجب بهذا القصـر أو بهذه السيارة، وربما تمنته لنفسها ولكن ليس عن طريق صاحبه .

كان هذا شعورها نحو أمها وزوج أمها، فهل تهرب إليها ؟!

وهزت راسها مرة ثانية كـأنها تقول : لا .. إنها لا تستطيع أن تهرب من النار لتجرع السم !!..

إذن، إلى أين ؟! .

وتحسست جيب ثوبها المدرسى لتعد القروش الخمسة التى تحملها .. هل تكتفى بهذه القروش الخـمسة وتهيم على وجهها فى الدنيا ؟ ..

وطاف خيالها حول الدنيا التى ستـهرب إليها، فإذا بها دنيا من الوحوش اقلهم ضراوة رجل مثل زوج أمـها، أو رجل كهذا الذى حاول أن يعتدى عليها وهى فى العاشرة من عمرها والتى لا تزال كلما تذكرته تشم رائحة انفـاسه الكريهة فتكاد تصاب بالغثيان .. إنها دنيا لم ترحمها حتى اليوم فكيف تفر إليها ؟

وهى لا تخـاف الوحـوش، وتسـتطـيع دائمـا أن تدافع عن نفسهـا وتصدهم عنها .. ولكن إلى متى تسـتطيع أن تقاومهم، وكيف تضـمن ألا تضطرها الحاجـة إلى الإستسـلام للوحوش

كما استسلمت أمها، وكيف تعول نفسها إذا لم تستسلم ؟ ..

إنها اذكى واحرص من أن تقذف بانوثتها وشبابها إلى المجهول وأن تخوض معركة بغير سلاح .. وهى لن تستطيع أن تهرب ولن تستطيع أن تكون حرة إلا إذا استطاعت أن تعتمد على نفسها، وأن تستغنى عن الدنيا .. وزمت شفتيها الملتهبين كأنها اتخذت قرارا جديدا ..

وكان قرارها أن تبحث عن عمل .. ويومها ستهجر بيت عمتها، ولن تضطر إلى ازعاج أبيها فى دنياه الخاصة، ولا أن تجرع السم مع أمها .. ستكون قوية، واقفة على قدميها .. وستكون حرة . الحرية كلها !! .

ولكنها لن تستطيع أن تعمل الآن وهى لا تزال فى السنة الرابعة ثانوى طالبة فى الثقافة العامة .. يجب أن تنتظر حتى تتم دراستها وحتى تلتحق بالجامعة أيضا .. وكل ما تستطيعه إلى أن تنتهى هو أن تدافع عن حريتها بالقدر الذى لا يخرجها من بيت عمتها ..

●●●

ومر بها ترام الخليج « نمرة ٢٢ » وكان قد مر بها عشرات المرات .. إنها تكره هذا الترام المكون من عربة واحدة ترتعش فوق القضبان كأنها طفل مشرد مصاب بالسعال الديكى ، تكره مقاعده الخشبية الجافة كأنها الواح « غسل » الموتى صفت بجانب بعضها البعض، فى دكان حانوتى يعامل زبائنه بسعر الجملة !! وتكره شارع الخليج نفسه الذى ينساب ضيقا مظلما كثعبان يتأوى فى طين مستنقع، وتكره البيوت المهدمة

القـديمة التى تقف على جـانبيـه وتكاد من طول العشـرة تميل بعضـها على بعض، وتكره هؤلاء الباعة المتجولين الذين يقفزون من على اليمين ومن عـلى اليسار يبيعـون الدبابيس والأمشاط و « شبك » الشعـر، أو المناديل المحلاوى والمناديل « أم قوية » أو يبـيعـون الهـريسـة والجوزية .. تكرههـم وتكره من بينهم بالذات هذا البـائع الشـاب الذى يقـفـز إلى التـرام عند تقـاطع شـارع الموسكى بشـارع الخليج ، ومـا يكاد يراها حـتى يرفع صوته بالغناء :

« وآه يا اسمر اللون، حـبيبى الأسمرانى .. حبيـبى وعيونه سود حتى الكحل ده ربانى » !..

ثم يقطع اغنـيتـه ويصـرخ على بـضاعـتـه : « الأمـشـاط والفلايات العـمولة .. مناديل بقوية .. دبابيس مشـبك، فراتيك للشعر »

.. ثم يمـد لها يـده الخشنة يأخـذ الأمـشاط قـائلا : « مش لازمك مشط ياست هانم .. ما لكيـش حلفان علىّ، ده أنا عامله من ضلعى الشـمـال !» وقبل أن ينتظر رفـضـهـا يدير رأسـه عنهـا ويـتظاهر بأنه يخـاطب أحـد زبائـنه صـائحـا : « ياواد يا سـمر يا جـمـيل .. حرام عليك جـننتنى » ، ثم يضع طرف جلبابه بيـن أسنانه ويعاود القفـز بين عربات التـرام فى جرأة عجيبة مخيفة .

وكانت راكـبات غـرفة الحريم فى ترام الخليج يـفضلن هذا البائع ويستلطفنه ويستلطفن الطريقة التى يعرض بها بضاعته، وكان كلـما ظهر أمـامهن التـفتن إلى امينـة متضـاحكات وهن

يستمعن إلى الأسلوب الذى يغازلها به .. ولكن أمينة ظلت تكرهه وتكره قفزاته الجريئة بين العربات، بل إنها صرخت يوما عندما خيل إليها أنه وقع تحت عجلات الترام الآتى فى الاتجاه المضاد، بينما كان يقفز من ناحية الشمال، ولكن الترام مرّ، وإذا به يظهر من خلفه واقفا على قدميه وهو ينظر إليها ويردد أغنية : « اسمر ملك روحى، يا حبيبى تعالى بالعجل »!!.

كانت تكرهه، ورغم ذلك فإنها كانت تنتظره كلما اقترب الترام من تقاطع شارع الموسكى بشارع الخليج، وكان إذا تأخر فى القفز إلى العربة اختلست اللفتات باحثة عنه .. كانت مغازلاته البريئة الفطرية تخفف عنها ملل الطريق الطويل من العباسية حتى ميدان السيدة حيث تقع مدرسة السنية، وكانت هذه المغازلات ترضى غرورها أمام بقية راكبات عربة الحريم، ولو أنه غازل واحدة أخرى لحقدت عليه ولكرهت طريقها إلى المدرسة ولكرهت جميع راكبات عربة الحريم أكثر مما كانت تكرههن ..

كانت تكرههن وتكره الأحاديث العجيبة التى تدور بينهن داخل العربة .. أحاديث زميلاتها فى المدرسة وهن يروين قصة الخطاب الغرامى الذى ضبطته « ابله سنية » مدرسة التاريخ الطبيعى فى كراسة زميلتهن زينب، ثم تميل رؤوسهن بعضها على بعض ليروين قصة غرام « ابله سنية » نفسها بفهمى افندى مدرس اللغة الإنجليزية، ثم يتضاحكن ويرسلن النكات حول الشيخ جبر مدرس الديانة والخط العربى، ولم تكن تشاركهن هذه الأحاديث بل كانت تختار مكانها فى طرف

العربة وتجلس مرفوعة الرأس صامتة كأنها ملكة تستمع إلى رعاياها، ولا تنطق ألا لتوجه الحديث الوجهة التى تريدها .. أو لتقول كلمتين ردا على سؤال .. وكانت زميلاتها يتهمنها دائما « بالقنزحة » وبالكبر ويرددون حولها دائما مختلف القصص والروايات، ولكنهن لم ينكرن أبدا جمالها، ولا خفة دمها، ولا ذكاءها، ولا تفوقها فى دراستها وفى العزف على «البيانو» والغناء والرقص وكن دائما يحاولن التودد إليها، وتتباهى كل منهن إذا ما استطاعت أن تكسب صداقتها وأن تزاملها فى أوقات « الفسحة » التى تتخلل أوقات الدراسة ، بل كان بينهن فتيات أصغر منها سنا، يذبن فيها حبا، حتى ينقلب هذا الحب إلى شيء اقرب إلى العشق أو إلى العبادة والتقديس .. هذا الحب العجيب الذى ينطلق فى صدر كل فتاة وهى فى التاسعة أو العاشرة من عمرها نحو واحدة من زميلاتها الكبار أو نحو إحدى المدرسات أو احدى « الابلاوات » ، وتفتعل فيه جميع أحاسيس الحب الكامل من هناء وشقاء ، وابتسام ودموع، ووصل وجفاء، وكأنه تجربة أو اعداد لهذه القلوب الصغيرة ريما تلتقى كل منهن بالرجل الأول الذى سيخفق له قلبها ..

وكانت فخورة بأنها فاقت كل بنات المدرسة فى عدد البنات الصغيرات اللاتى يذبن فيها حبا، وكانت تدخل إلى حجرة الدراسة كل صباح فتجد على « تختتها » باقة صغيرة من الورد هدية من إحدى المحبات، أو صورة من هذه الصور الملونة التى تمثل ملاكين صغيرين يقبل أحدهما الآخر، وكانت تصلها منهن كل يوم خطابات غرام محشوة بكلمات الحب

والهيام، وتصلها هذه الأوراق التي كان البنات يقصصنها في شكل دائرة ثم يطوينها بطريقة خاصة ويكتبن على وجهها الأول : « افتحي هذه الورقة وستجدى قلبي » فإذا ما فتحت طية الورقة الأولى وجدتها ـ أى الورقة ـ قد أصبحت على شكل قلب مكتوب عليه : « افتحى قلبي وستجدى من أحبه » وتفتح الطية الثانية فتجد الورقة قد أصبحت على شكل دائرة مكتوب عليها : « أحبك أنت أنت» !!.

ولم تكن زميلاتها في المدرسة هنّ كل من يركبن عربة الحريم في ترام الخليج نمرة ٢٢، فقد كان هناك دائما بعض النسوة سواء كن من سيدات العباسية اللاتي يلبسن المعطف الأسود فوق الثوب « والتيربون » أو «التوك» فوق الرأس، أو من سيدات باب الشعرية وحي الحسين اللاتي يلبسن الملاءة اللف . وكانت تتعجب لهذه الألفة العجيبة التي تدب بينهن بمجرد أن ترى احداهن الأخرى لأول مرة وبلا سابق معرفة فيبدأن في حديث لا ينتهي عن مشترياتهن وعن أزواجهن وعن أخص أسرار حياتهن، وعن « طابخين إيه النهارده » وعن البت مقصوفة الرقبة الخدامة اللي بتلهف رغيفين في الطقة الواحدة.. ويا ختي ولا بيبان عليها صفرة وعفشة وتسد النفس.. وياريتها بتحمد ربنا، إلا زى القطط تاكل وتنسى » !! .

وكانت تتبع هذه الأحاديث بأذن غير واعية، وكانت تعلم أن كلا منهن « نتاشة » في كل ما تقول وفي كل ما ترويه عن مشترياتها وبيتها، وكانت عمتها نفسها « تنتش » عندما تركب معها الترام وتشترك في بعض هذه الأحديث، وكانت « تنتش »

بصفة خاصة عندما تقـول « أصل البيه بتاعي شديد قوى !! » وهى تعلم أن زوج عـمتهـا ليس « شديدا » أبدا إلا كلمـا أمرته زوجته بأن يكون شديدا ..

ولم تكن تغـتـاظ من هؤلاء النسوة إلا عـندما تمد إحـداهن ذراعيـها إلى كتـفهـا وتربت عليه، تبدأ تتـحسس جـسدها فى لمسات تحاول أن تجعلها غير مـقصودة، وكأنها تتحسس ثوبا من القماش تريد أن تطمئن إلى نوعه، ثم تقول بلا كلفة :

– اسم النبى حـارسك .. السـمـار نص الجـمـال .. إزيك يا حبيبتى وازى نينتك ؟!.

وترد فى اقتضاب :

– كويسه ..

– والاسم الكريم إيه بأه ..

– أمينة ..

– عـاشت الأسامى يـاست أمينة .. أنت بـتروحى المدرسـة يا حلوة ! ..

– أيوه ..

وعلى إيه الـهم ده يا اخـتى .. على رأى المثل، طـاب وطلب الأكّال، دى أنت نقعدى فى البيت والعريس يجيلك لحد عندك .. والعـريس عندى، وابنـى مـحـمـد اسم الله عليـه، مـوظف فى الحكومة أد الدنيا، شـباب ويملا العين، وعـيلة متأصلة أب عن جد، أنت مش تسـمعى عن الشـيخ عاشور إمـام جامع سـيدى الشعرانى .. أهو بيبقى عديل أخويا لزم !!.

ويستـمر الحوار وهـى تكاد تختنق من الضيـق حتى تصل

إلى المدرسة، أو تغادر المرأة الترام قبلها ..

وكان مقدرا عليها فى هذا اليوم أن تركب هذا الترام كما تعودت أن تركبه كل يوم منذ ٤ سنوات أى منذ التحقت بمدرسة السنية الثانوية .. كان مقدرا عليها أن تمر فى شارع الخليج الضيق المظلم، وأن ترى البائع المتجول الذى يغنى لها « آه يا اسمر اللون » وأن تستمع إلى احاديث زميلاتها واحاديث سيدات العباسية وباب الشعرية وحى الحسين .. ولكنها أحست بثورة على كل ذلك، وتشبثت بثورتها، وعاندت نفسها .. إنها تريد أن تتحرر ولو ليوم واحد ، تريد أن تقطع هذا الروتين الذى وضعته لها الدنيا، تريد أن تحس بأنها أقوى من أن تخضع لنظام ، وأجرأ من أن تكون كبقية البنات ، تريد أن تفعل شيئا هذا الصباح ولو كان جرما، لتهدأ نفسها الثائرة ولتنتقم لكرامتها المجروحة وترد الصفعة التى لا تزال تحرق وجنتها ..

وتسمرت فى مكانها على محطة الترام واغمضت عينيها حتى لا تراه ـ أى الترام ـ فتندفع إليه ولو بحكم العادة .. ونظر إليها الكمسارى فلما رآها لا تتحرك نفخ فى زمارته بقوة، وجعل لصوتها المزعج ذيلا طويلا كأنه يحاول أن يوقظها به ..

وجاء بعده ترام نمرة (٣) المتجه إلى شارع فؤاد، فقفزت إليه، ولم تقفز إلى غرفة الحريم، بل تمادت فى ثورتها وجلست بجانب الرجال .. وتركت وراءها « سى عبد الحميد » صاحب حانوت الخردوات الذى يقع قبالة محطة الترام بشارع

العباسية يخبط كفا على كف وقد رآها تركب تراما غير الترام الموصل للمدرسة، ويقول متحسرا لاثنتين من زبائنه :

- يا خسارة بنات الناس .. والله ست أمينة مش ناوية تجيبها البر ! .

وردت احدى المرأتين :

- يعني هيه حتجيبه من بره !..

●●●

ووصل الترام إلى أول شارع فؤاد ، ونزلت منه أمينة ..

وسارت في خطى بطيئة متزنة تشاهد معروضات الحوانيت وكانت تشعر أنها قوية .. أقوى من عمتها وأقوى من زوج عمتها وأقوى من كل البنات . ألم تهرب من المدرسة ؟ هل استطاع احد أن يمنعها من الهرب ؟ إنها حرة .. تستطيع أن تفعل ما تشاء ! ..

ولكن هذا الشعور بالقوة بدأ يزايلها شيئا فشيئا، وبدأت تشعر بالملل وبالحيرة، ماذا تستطيع أن تفعل بيومها، بل ماذا تريد أن تفعل ؟! إنها لا تعلم ماذا تستطيع ولا ماذا تريد ..

وأخذت تتلكأ في خطواتها، وتقف طويلا أمام نافذة هذا الحانوت دون أن ترى فيه شيئا، ثم تقف طويلا أمام هذا الإعلان الملصوق على الحائط دون أن تقرأ فيه شيئا، ثم استدارت ناحية الطريق تراقب بعينين تائهتين السيارات وعربات الترام، وربما تساءلت : لم لا تقفز إلى داخل احدى هذه السيارات فربما استطاع صاحبها أن يزيل عنها هذا الملل الذي تحس به ؟ ولم لا تبتسم لأحد هؤلاء المارة فربما دخلت

معه في حديث تتسلى به ويمسح عنها الكآبة التى بدأت تجثم على صدرها ؟!

ولم تفعل شيئا من هذا، وبدأت تحس أنها أصبحت ملتقى الأنظار، وأن كثيرا من المتسكعين بدأوا يلتفون حولها يوجهون إليها ألفاظ الإعجاب والإغراء، فتضايقت أو خافت، وأحست بساقيها وقد تعبتا من طول ما سارت ووقفت .. فاندفعت مرة واحدة وقفزت إلى ترام « نمرة ١٥ » .. وفي هذه المرة جلست في مكان الحريم، وعندما وجدت نفسها بين بنات جنسها هدأت واستراحت !!

ونزلت عند محطة الجامعة ..

وكانت تسمع عن الجامعة كثيرا ولكنها لم تكن قد رأتها من قبل .. وعندما واجهت بناءها الضخم المهيب لأول مرة أحست أنها تواجه معبدا مقدسا يجب أن تخشع له وتحنى أمامه الرأس، ولم تستطع لفرط الهيبة التى ملأت بها قلبها أن تقترب من بناء الجامعة ، بل انحرفت إلى اليمين ودخلت حدائق الأورمان .

وسارت في طرقات الحديقة في خطى مرتعشة وكأنها تخاف أن يقبض عليها عسكرى البوليس بتهمة الهرب من مدرسة السنية والالتحاق بالجامعة دون وجه حق، ثم جلست على احد المقاعد مبهورة الأنفاس، متعبة، أنهكتها الحيرة، وأخذت ترقب طلبة الجامعة وهم يسيرون بين أشجار الحديقة فرادى وجماعات ، وكانت تكن لطلبة الجامعة احتراما كبيرا، وتنظر إليهم كأنهم آلهة العلم وآلهة الوطنية، ولكن هذا

الاحترام بدأ يتلاشى، والآلهة أخذوا يبدون اقزاما عندما بدأوا يدورون حولها يحاولون أن يجتذبوا عينيها، ويصيح أحدهم بنكتة علها تضحك لها، أو يرفع صوته فى مناقشة أحد زملائه علها تصغي .. الخ، إنهم لا يزيدون شيئا عن تلامذة مدرسة فؤاد الأول الثانوية ! .

وجاء أحد الطلبة ـ طلبة الجامعة ـ وجلس بجانبها على مقعد الحديقة وقال كأنه صديق قديم :

- حضرتك فى أى كلية ؟.

ونظرت إليه وإلى ياقته العالية وطربوشه الطويل وقالت وكأنها تتحدى :

- أنا مش فى الكلية .. أنا مش فى الجامعة خالص !.

وقال وهو يحاول أن يبدو خفيف الدم :

- أنا كمان قلت مش ممكن واحدة بالجمال ده تدخل الجامعة .. اللى عندنا كلهم بعيد عنك نقاوة .. اللى ما تنفعش للجواز يدخلوها الجامعة !.

ولم ترد، وأدارت رأسها عنه لتخفى اشمئزازها .. لقد كانت تعتقد أن طلبة الجامعة ارقى فى عقلياتهم من أن يتفوهوا بمثل هذا الغزل الرخيص، وكانت تعتقد أن بنات الجامعة اكثر احتراما بين زملائهن من أن يقال عنهن هذا القول !.

وعاد يسألها :

- أمال حضرتك بتروحى مدرسة إيه ؟ ..

ولم ترد أيضا، فقال :

- ما دام شايله شنطة تبقى لازم بتروحى مدرسة ..

وقالت متهكمة :

– يا سلام على النباهة !.

– ولسه ياما حتشوفى من نباهتى، بس قوليلى المدرسة تبقى فين وأنا أقولك على طول اسمها إيه ..

– وليه التعب ده كله .. اسمها مدرسة السنية .

– وماله ، برضه كويس .. إزيك يا آنسة سنية !.

وقالت تهمس لنفسها : يا سم !..

وعاد يقول :

– انتى ما شفتيش الشجرة اللى تقابل عندها جستنيان وافلاطون .. تعالى اوريها لك ..

ولم ترد ..

– طيب تعالى اوريكى فريد زعلوك زعيم الطلبة اللى بتكتب عنه الجرائد !!.

ولم ترد أيضا، وإنما قامت فى عنف واتجهت إلى محطة الترام .. وكانت ساعة جامعة فؤاد الأول تدق الثانية عشرة ظهرا ولم تستطع أن تعود إلى البيت، يجب أن تبقى مشردة هكذا فى الشوارع إلى أن يحين موعد عودتها من المدرسة فى الساعة الرابعة مساء ..

واحست بفراغ كبير باهت يكاد يبتلعها ..

هل الحرية هى هذا الفراغ الكبير ؟ هل الحرية هى هذه الساعات المشردة الممزقة التى تمر فى حياة الإنسان دون أن تحسب من عمره ؟ .

إنها لا تدرى .. لا تدرى إلا أن الملل والفراغ يكادان يقتلانها

وأنها تتمنى لو كانت فى المدرسة بين زميلاتها ومدرساتها تشاكسهن ويشاكسنها وتبدو بينهن ملكة قادرة مطمئنة إلى عرشها . بأى حق تنازلت عن عرشها ولو ليوم واحد .. ما هذا الجنون !!.

بل إنها تمنت لو عادت إلى البيت لتواجه عمتها وتتحمل منها قسوتها وعنفها .. فإن الألم ارحم دائما من الملل . والشعور بالظلم ارحم من الشعور بالفرح !!.

وركبت الترام تائهة فى أفكارها .. إلى أن وصلت إلى شارع فاروق، ثم نزلت واتجهت إلى بيت « الست مارى » الخياطة بحى الظاهر ..

إنها إلى عهد قريب لم تكن تتردد على بيت مارى الخياطة، ولم يكن يسمح لأى فتاة من بنات العباسية بالتردد على حى الظاهر إلا فى المناسبات القهرية وتحت حراسة قوية ، بل إنها لا تزال تذكر القصص التى كانت تسمعها فى طفولتها المبكرة، عن المعارك العنيفة التى تدور بين أهالى حى الظاهر وأهالى العباسية والحسينية ..

كان حى الظاهر هو حى اليهود، ولم يكن يسكن بينهم من المسلمين إلا عائلات قليلة متفرقة، وكان فتوات الحسينية يقومون بغارات على حى الظاهر الذى لم يكن يفصل بينهم وبينه سوى مجموعة من الخرابات والشوارع المهدمة، فيقذفون أهله بالطوب والحجارة إلى أن يتدخل البوليس .. وكان اليهود ينهزمون دائما فى هذه الغارات التى لم يكن لها من سبب إلا التعصب الدينى، والكراهية المطلقة لليهود والقصص الخرافية

التى تدور حول عاداتهم وبناتهم وشبانهم .. وكان اليهود بدورهم إذا ما انفردوا بأحد المسلمين فى حيهم أمسكوا به وأذاقوه العذاب، وأعادوه إلى أهله وهو عار تقريبا من الثياب ..

إلى أن حدثت المعجزة، وانقلبت الخرابات التى تفصل بين حى الحسينية وحى الظاهر إلى شارع حديث يسمى « شارع فاروق » التقى عنده الحيان وتجاور المسلمون واليهود وقامت عماراتهم وبيوتهم الحديثة تواجه بعضها بعضا وتجاور بعضها بعضا .. فإذا بالوئام والسلام يسود الجميع ويتعاون المسلمون واليهود على الحياة، ويعلن « عرابى » فتوة الحسينية توبته ويفتح مقهى أنيقا على رأس شارع فاروق ويصبح زبائنه كلهم من الأفندية المحترمين ..

ورغم ذلك ظلت بنات العباسية لا يترددن على حى الظاهر . وكانت مارى الخياطة تطوف بيوتهن وتحيك لهن الثياب بالأجر اليومى، ولكن مارى اشتهرت وتوسعت فى أعمالها فلم تعد تطوف البيوت وأصبح على زبائنها أن يذهبوا إليها ..

ولكن أمينة لم تكن مجرد « زبونة » عند مارى الخياطة بل كانت صديقة لابنتها فورتينيه .. فتاة فى مثل سنها، فارعة القوام نحيفة، مليحة الوجه، أنوثتها كلها فى لفتات عينيها، وفى ابتسامتها الواسعة، وفى مشيتها العصبية الضعيفة الخطوات التى يهتز معها جسدها كله وتتهادى معها خصلات شعرها يمنة ويسرة .. ولم يكن فيها من اليهود إلا هذا الأنف المعقوف فى رقة، وهاتان الأذنان الكبيرتان نوعا ..

وكانت صداقة أمينة لفورتينيه محدودة دائما بشعورها أنها

أرقى منهـا، وأنها ليـست يهوديـة مثلهـا ولا هي ابنة خيـاطة ولكنها رغم ذلك كانت تحـبها، وكانت تحب حديثـها الذى يفتح أمـامهـا آفـاقا جـديدة أوسع من أفق الأحـاديث التى تدور فى المقابلات، وفى حفلات الزار، وفى عـربة الحريم بترام الخليج، كـانت تحدثهـا عن السـينمـا، وعن الأزياء، وعن باريس، وعن الرقص، وعما تنشره المجلات الأجنبية، وعن الرجال والنساء ..

وكان حديثها عن الرجال والنساء دائما صريحا جريئا حتى تحمر منه وجنتا أمينة خجلا ..

وكانت أمـينة تعجب بالحـياة التى تحيـاها فورتينيـه، فهى حرة تخرج متى تشاء وتعـود متى تشاء، وتقابل هذا الشاب أو ذاك، وتذهب هنا وهـناك .. فـالأم « مـارى » تعـمـل خـيـاطة، وفـورتينيـه لا تزال طالبـة، ولكنـهـا فى الوقت نفـسـه تعطى دروسا فـى اللغة الفـرنسيـة لبعض بنات العـائلات لقـاء أجر ضـئيل، وأخـوها يعمل مـوظفا فـى أحد البنوك، ولكنه أيضـا خصص إحـدى حجرات البـيت وأتى فيـها بجرامـفون وبضع أسطوانات وأخذ يعطى دروسا فى الرقص لبعض طلبة مدرسة فؤاد الأول الثانوية لقاء عشريـن قرشا عن الرقصة الواحدة .. وكانـت أمينة تتـسـاءل : هل تسـتطيع أن تفعل مـثلهم وتكسب قوتها بمثل ما يكسبونه من جهد ؟!

واستقبلتـها فورتينيه دهشة عندما رأتهـا فى ثياب المدرسة وحقيبتـها فى يدها، ولم يكن الوقت وقت العودة من المدرسة .. ولكنها لم تبد دهشتها ولم تعلق بشىء، إنما اسـتقبلتها مرحبة، وجلستا سويا على الاريكة الواسعة تتحادثان عن كل شىء، ثم

طلبت منها أمينة أن تلقنها درسا فى اللغة الفرنسية، ثم جاء اخوها « إيلى » من البنك الذى يعمل فيه وجلس معهما يروى لهما آخر أنباء مسابقات الرقص التى اشترك فيها، وعن الحفلة التى أقيمت فى كازينو سان استفان بالاسكندرية والحفلة التى اقيمت بكباريه الكيت كات فى أمبابة، ثم عرض على أمينة أن يلقنها دروسا فى الرقص .

ورفضت أمينة وتمنعت، ولكن فورتينيه شجعتها وأكدت لها أن بنات الذوات المسلمات كلهن يرقصن وتكتب عنهن ذلك المجلات، وأن الفتاة التى لا ترقص اليوم لا تعتبر من بنات الذوات ..

ورضيت أمينة وهى تضحك على استحياء .. ولم تشعر أن شيئا قد حدث والفتى اليهودى يحيط خصرها بذراعه، ولا أن شيئا حدث وهو يضم صدرها إلى صدره، ولا أن شيئا حدث وساقاه تخبطان ساقيها .. كان كل ذهنها وشعورها موجها إلى الخطوات التى يلقنها لها إيلى .. وساعدتها أذنها الموسيقية وجسدها السلس الطيع، وفى خلال ساعة واحدة كانت أمينة ترقص، وكأنها ولدت لترقص التانجو والفوكس تروت ..

وقال لها إيلى :

- يا مدموزيل أمينة أنا اهنيكى .. لو كنت شريكتى فى الرقص ويقينا « بارتنرز » كنا ضربنا فريد استير وجنجر روجرز على عينهم الجوز ..

واعتبرتها أمينة نكتة، وضحكت . ولم تر فى عين إيلى شيئا أكثر من ذلك ..

●●●

.. وفى الساعة الرابعة مساء خرجت أمينة من بيت « ست مارى الخياطة » بعد أن وعدت صديقتها فورتينيه بأن تواظب على دروس اللغة الفرنسية، وبعد أن وعدت شقيقها إيلى بأن تواظب على دروس الرقص ..

وسارت إلى بيتها كأنها عائدة من المدرسة ..

وعند ناصية شارع الجنزورى لمحت عباس وهو يسير فى خطاه القوية التى يضرب بها الأرض كأنه يريد أن يشعلها نارا.. لمحته كما تعودت أن تلمحه دائما : جادا، صارما، يبدو كبيرا .. كبيرا جدا ..

إنه شعور عجيب هذا الذى يجتاحها كلما لمحت عباس .. شعور هو مزيج من الغيظ والاعجاب، والخوف والاطمئنان .. إنها تتخيله أحيانا كالقيد الحديدى يطوف بها حتى يتمكن من معصمها وقدميها ليقيدها إليه ويغتصب منها حريتها، وتتخيله أحيانا صدرا رحيما قويا تستطيع أن تحتمى به من همومها ومن أفكارها السود التى تعصف بها .. وبقدر ما كانت تتجاهل صورته وهى تلح على ذهنها وتقتحم عليها خيالها، بقدر ما كانت تحرص على أن تراه كل يوم وهو فى طريقه إلى المدرسة، وبقدر ما كانت تتمنى أن يصير كبقية طلبة مدرسة فؤاد الأول يرسل إليها ابتساماته ويجهد نفسه فى إثارة اهتمامها، ويقدم خضوعه لها وهى واقفة فى شرفتها كل صباح كملكة تطل على موكب العبيد .. ولو أنه فعل ذلك لأذلته وتجاهلته وحطمت كبرياءه كما تعودت أن تعامل بقية زملائه، أما وهو يتجاهلها ويمر بعيدا عن شرفتها وكأنه لا يحس بها

ولا يعترف بأنها أجمل بنات الحى وأكثرهن فتنة، فهذا ما كان يغيظها، وما يثير اهتمامها به كلما لمحته ..

وكانت فى هذا اليوم تشعر ببعض الجرأة، فقد هربت من المدرسة، وقضت نهارها تتسكع في الشوارع ، وتلقت درسها الأول في الرقص الأفرنجى .. كانت تشعر أنها ارتفعت عن طبقة أهالى حى العباسية، وتخلصت من بعض مظاهر الحياء الذى كان ضريبة مفروضة على كل بنت إذا ما خرجت إلى الشارع .. فتلكأت قليلا عندما لمحت عباس، وتباطأت فى خطواتها بعد أن وضعت فوق شفتيها مشروع ابتسامة خفيفة لا تكاد تبدو إلى أن واجهته .. ولم تكن تنتظر منه أن يقف ليحادثها ـ فتقاليد العباسية لا يمكن أن تتسامح إلى هذا الحد ـ ولكنها كانت تنتظر أن ترى فى عينيه نظرة، وعلى شفتيه ابتسامة، وكانت تنتظر أن تسمع معه منه كلمة أو همسة، وتنتظر أن تقصر خطواته حتى يسير خلفها كما تعود كل الناس أن يسيروا خلفها يملأون العين من قوامها الحائر مع وقع قدميها، لا يهدأ ولا يستريح .

ولكن شيئا من هذا لم يحدث .. لقد مر من أمامها كالعاصفة العمياء .. لا ترى ولكنها تقتلع !

ورغم ذلك فقد رأت فيه شيئا .. شيئا أقنعتها غريزتها كأنثى بأنه ظاهرة من تأثيرها عليه ومن اهتمامه بها، ورغم تعمده ألا يبدو عليه تأثير أو اهتمام .. لم تكن هذه الظاهرة إلا احتقانا ملحوظا فى أذنيه حتى بدتا كقطعتين من كبدة .

إنه لايمكن أن يكون قد ولد وأذناه محتقنتان إلى هذا الحد،

لابد أنه يعاني كبتا في عواطفه وشعوره، دفع الدم إلى رأسه حتى تجمع في أذنيه .. ولكن ما هي هذه العواطف وما هو هذا الشعور .. هل هو الحب ؟ هل هي رغبة ؟ هل هو سخط عليها لما يسمعه عنها وعن أمها من أقاويل وإشاعات ؟ أم هو مجرد الحياء الذي يصيب بعض الشبان كلما التقوا بفتاة لها بعض الشخصية وبعض الجمال ؟!

واكتفت بأن أقنعت نفسها بأنه مهتم بها، واتخذت أذنيه دليلا على هذا الاهتمام، وقد كانت في حاجة إلى هذا الاقناع حتى ترضى نفسها وحتى لا تثور وتغضب لكرامتها .

وهزت كتفيها كأنها لا تبالي، وأسرعت الخطى إلى بيتها ..

وعندما التقت بعمتها لم تواجهها بابتسامتها الساخرة ونظرات التحدي، كما تعودت، فقد كانت تشعر في قرارة نفسها أنها ارتكبت جرما بهربها إلى المدرسة، وإنها قطعت حبلا متصلا من تقاليد نشأت عليها وحرصت عمتها أن تنشئها عليها .. وكان هذا الشعور يجعلها تخجل من أن تواجه به عمتها، أو زوج عمتها أو حتى أولاد عمتها ، بل إنها أحست أن هذا الجرم لم تركبه في حق نفسها ، بل في حق أبيها الذي تحبه والذي تحرص دائما على أن تجعله فخورا بها مطمئنا إلى مستقبلها ، وفي حق أمها الشقية الضعيفة التي ترتسم في عينيها - كلما رأت ابنتها - نظرات مضطربة وكأنها تعتذر لها وتسألها الصفح .

كان شعورها، كشعور الزوج الخائن الذي يحس بخيانته حتى لو لم يعلمها عنه أحد، فيحاول أن يرضي زوجته ويبالغ

فى إرضائهـا وفى تدليلها والسخـاء عليها .. وقـد أحست هى بهذا الشعـور بمجرد أن دخلت البيت وأفاقت من المـغامرة التى استغرقت يومها، فحاولت أن ترضـى عـمتها وبدت أمامها طيعة مؤدبة، ثم بالغت فى مـحاولة إرضائهـا حتى أنها قبلتـها على غير عادة .. وتلقت العمة القـبلة فى كثير من الشك وقالت وهى تنظر إلى أمينة بعينين نافذتين :

– خير إن شاء الله ..

وقالت أمينة وهى تكاد تتعلثم فى كلماتها :

– ما فيش حاجة .. أصلك وحشتينى النهارده قوى يا نينه !

وعادت العمـة تقول وهى لا تزال محتفظة بـنظراتها النافذة التى يملأها الشك :

– إن شاء الله ما تشوفى وحش يا بنتى ! .

وربما تنبهت أمينـة إلى أنها تمادت فى الإقبال على عمـتها . فانسـحبت إلى غـرفتها منكسرة النفس، بينما عمـتها تمصمص شفتيها تعجبا وتهمس لنفسها :

– عجايب .. البت جرى لها إيه يا ترى .. ربنا يستر !.

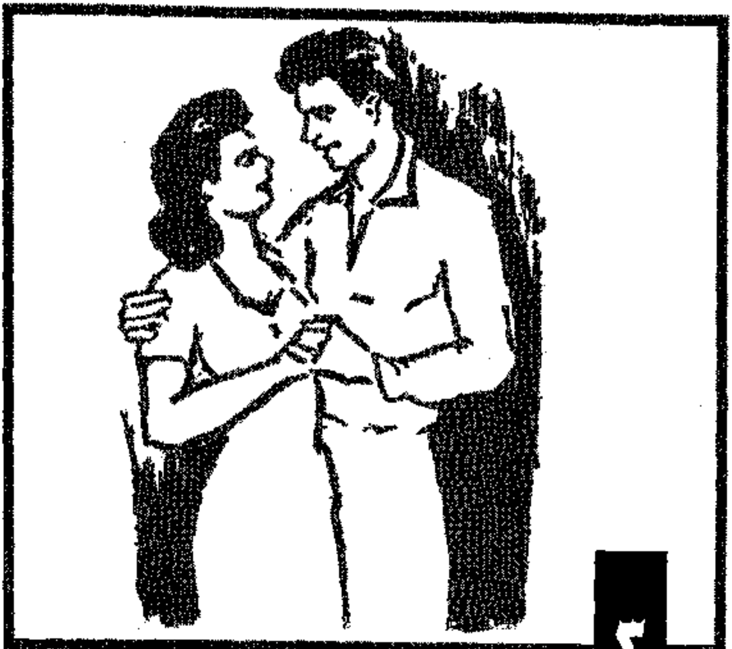
وأغلقت أمينة حجرتها على نفسها وأخذت تفكر فى المشكلة التى لابد ستواجههـا، وهى مشكلة « ورقة الغياب » أو الخطاب الذى تعودت أن ترسله إدارة المدرسة إلى أولياء أمور الطالبات كلما تغيبت واحدة منهن ..

ولم يكن هناك حـل إلا أن تسـرق خطاب المدرسـة قـبل أن يصل إلى يد زوج عمتها الذى أقامه أبوها وليا لأمرها .

وقد ظلـت ثلاثة أيام متتـالية تنتـظر ساعى البريـد قبل أن

تذهب إلى المدوسة، إلى أن جاء يوما يحمل الخطاب، فطلبته منه لتحملة إلى زوج عمتها، وتردد ساعى البريد قليلا، ثم أعطاه لها، وتظاهرت بأنها تعود به إلى داخل البيت وقبل أن تصل إلى باب الشقة كانت قد مزقته ووضعت قصاصاته فى جيبها، ثم عادت إلى الطريق متجهة إلى محطة الترام ، وهى تحس بالكره لنفسها .. إنها تكره أن تكون كاذبة، وتكره أن تكون لصة، وتكره أن تخاف من أى مخلوق على وجه الأرض .. لماذا لا يكون لها الحرية لتهرب من المدرسة كلما شاءت ، ولماذا لا يكون لها الحرية فى أن تعلن للجميع أنها هربت ولم تذهب إلى المدرسة . لو كان لها هذه الحرية لأغنتها عن الكذب، وعن السرقة، وعن الخوف .. بل عن الهرب ! ..

ولكن هل هذه هى الحرية ؟! .



٣

وسارت الأيام بأمينة ..

وكان الصراع بينها وبين عمتها وزوج عمتها يشتد يوما بعد يوم .. إنها لم تعد تفكر فى الهرب من البيت ، ولم تعد تفكر فى الهرب من المدرسة ، ولكنها كانت تريد أن تكون حرة فى تصرفاتها الشخصية .. تخرج متى تشاء ، وتعود متى تشاء ، وتطيل الوقوف فى الشرفة ما شاء لها مزاجها أن تطيل

الوقوف .. وكانت تعتقد أن كل تعرض لتصرفاتها الشخصية هو اضطهاد لها ، وأن عمتها إذا تعرضت لها إنما تضطهدها لأنها عمتها وليست أمها ، وزوج عمتها إذا تعرض لها فلأنه زوج عمتها وليس أباها ..

واتخذ هذا الصراع من جانب أمينة أسلوب المعارضة دائما ، كانت تعارض كل شيء وكل رأى ، وتقول « لا » فى كل وقت . فإذا عرضت عليها عمتها أن تصحبها لزيارة إحدى صديقاتها رفضت بلا سبب إلا مجرد الرفض ، وربما ادعت أنها مصابة بصداع أو أنها منصرفة إلى مذاكرة دروسها ، وإذا دعيت إلى « مقابلة » أو حفلة زار ، أو حفلة عرس أو أداء واجب عزاء ، رفضت وأصرت على الرفض ، وإذا كان العيد « الصغير » أبت أن تأكل الكعك لا لشيء إلا لأن العائلة كلها تأكله ، ورفضت أن تلبس ثوبها الجديد لا لشيء إلا لأن العائلة كلها تلبس ثيابا جديدة ، فإذا كان العيد « الكبير » أبت أن تصحو فى الفجر لتلتف مع بقية أفراد العائلة حول الجزار وهو يذبح الخروف ، ثم تجتمع معهم حول الموقد يشوون قطع الكبد و« ريش الكستليتة » ويفطرون بها وفى قلوبهم استبشار وفى نفوسهم نشوة العيد وفرحته ، إنما كانت تتعمد أن تبقى فى فراشها حتى تنفض العائلة من حول الموقد بعد أن ينتهى أفرادها من إفطارهم ، ثم تخرج عليهم وعلى شفتيها ابتسامة هزؤ وسخرية وكأنها تهزأ من عقولهم وعاداتهم واحتفالهم بهذه المناسبة التى يسمونها عيدا ..

بل إنها كانت تحب دائما أن تذهب مع العائلة إلى « سينما حديقة الأزبكية » فى ليالى الصيف ، لتشاهد الفيلم المعروض

بينما تأكل السميط والجبنة الرومى والدقة ، وتتناول كأسا كبيرا من « الخشاف » ، ولكنها بدأت ترفض الذهاب حتى إلى سينما حديقة الأزبكية ، وحرمت نفسها من السميط والخشاف !

ولم تكن سعيدة فى إصرارها على الرفض دائما وعلى المعارضة دائما ، ولم تكن تدرى سببا لهذا العناد الذى يحضها على الرفض والمعارضة .. وربما كان هذا العناد يشعرها ببعض الأهمية وهى ترى نفسها متميزة عن بقية أفراد العائلة ، وترى الجميع يلتفون حولها يرجونها ويلحون عليها لتشاركهم نزهتهم أو جمعهم ..

ولكن هذا الشعور بالأهمية كان يزايلها بمجرد أن تيأس العائلة منها ، فيتوجهوا إلى سبيلهم ويتركوها وحيدة فى البيت فكانت تحس بالندم على رفضها ، وتحس بالغيظ من نفسها والحنق على تصرفاتها .. ثم لا تلبث فى اليوم التالى أن تعود إلى عنادها .. كانت ترفض وتعارض لأنها تريد أن تثبت لنفسها أنها حرة تستطيع أن ترفض وأن تعارض ولكنها لم تكن سعيدة بهذه الحرية بل إنها تسائل نفسها كل يوم : هل هذه هى الحرية ؟

وشيئا فشيئا بدأت أمينة - وهى مستمرة فى عنادها - تبتعد عن نطاق العائلة ، وعن نطاق العباسية كلها .. فلم تعد عمتها تلح عليها فى شىء بل تعمدت أن تتجاهلها فى كل شىء ..

ولم تكن تقسو عليها إلا كما تقسو على أولادها ، بل إنها

كانت أعز لديها من أولادها فإنها لم ترزق ببنات ، وكانت أمينة هى دائما ابنتـها تعد لها كل مـاتعده أم لابنتها وتفـخر بها فى المجتـمعات كـما تفخـر كل أم بابنتهـا .. كانت تفخـر بها وهى تعـزف على البيـانو ، وكانت تفـخر بهـا وهى ترقص رقـصا شرقيا ، وتفخر بها وهى تنجح فى امتحانات المدرسة ، وتفخر بها لجمـالها وذكائها وخـفة دمها ولنظرات الحـسد التى تراها فى عيـون بقيـة الأمهات .. وكـان اليوم السـعيـد الذى تدخره للمسـتقبل هو يوم تطـلق أول زغرودة فى البيت فـرحا بزواج أمينة ..

ولكنها يئست من عناد أمينة ..

وتعلقت بالصبر لعلها تبرأ من هذا العناد وتعود إليها ..

وتجاهلت العباسية كلها أمينة .. فلم تعد تدعى إلى الحفلات والاجتماعات من كثرة ما رفضت من دعوات ، وانصرفت عنها صـديقاتهـا من طول ما تعـالت عليـهن وهزأت بعقليـاتهن فلم يعدن يسعـين إليها لا داخل المدرسة ولا خارجهـا .. وأصبحت أمـينة بينهن أشـبـه بخـرافـة حـيـة تدور حـولهـا القـصص والحواديت ..

وأبى عناد أمينة إلا أن يرد هذا التجاهل ضعفين ، فاحتقرت عائلتها كلها ، واحتقرت العباسية كلها بما فيها عباس .. بل إنها أصـبحت لا تطيق رؤية عـباس ، وتـود كلما رأته أن تصـفعـه وتحطم رأسه لتقنعـه بأنها تحتقره وبأنـها تكرهه وتكره اذنيه اللتين تحتقنان كلما مر بها ..

وانصرفت بكليتها إلى صديقتها اليهودية فورتينيه ..

وكانت تذهب إلى صديقتها هذه كل يوم عقب خروجها من المدرسة وتبقى عندها حتى الساعة السادسة تتلقى دروسا فى اللغة الفرنسية ودروسا فى الرقص ..

ولكن دروس الفرنسية لم تعد مجرد دروس ، فقد أصبحت تتقن الحديث بها فى لهجة تصحبها هذه النغمة الخنفاء التى تصحب دائما لهجات اليهود ، وكانت تخاطب صديقتها فورتينيه دائما بهذه اللغة وبهذه اللهجة ، وكان شعورها بأنها تتحدث بلغة أجنبية يمنحها حرية وجرأة فى اختيار الموضوع واللفظ ، تماما كشعور السائح عندما يجد نفسه فى بلد أجنبى بعيدا عن مجتمعه وبيئته فينطلق يأتى من التصرفات ما لا يبيحه لنفسه عندما يكون فى بلده ، وتماما كما نأبى نحن أن ننطق لفظا رذيلا باللغة العربية فننطق معناه بلغة أجنبية .. وقد أصبحت أمينة جريئة فى اختيار المواضيع التى تتحدث فيها واختيار المعانى التى تنطق بها ، مواضيع ومعان لا تجرؤ بنت من بنات العباسية على التحدث فيها قبل أن تتزوج ! كما أصبحت تتلذذ من سماع أحاديث فورتينيه وهى تصف لها كيف يقبلها صديقها وكيف يحتضنها بين ذراعيه ، وبماذا يمنيها وبماذا يعدها .. ولم تكن هذه الأحاديث تثير فيها شيئا من غرائزها إلا غريزة حب الاستطلاع وحب المعرفة ، ولم تصل بها أبدا إلى حب التجربة !.

ولم تعد دروس الرقص أيضا مجرد دروس ، فإنها أصبحت تحب أن ترقص وأصبحت تجيد الرقص ربما أكثر من أستاذها ، وأصبح إيلى يعشق الرقص معها ويتباهى بها ،

ويلح عليها أن تقبـل الاشتراك معه فى المسابقات التى تقـيمها بعض المحال العامة ، ثم لم يعد يرقص معها فحسب ، فإن كفه أحيانا تتحرك فوق ظهرها وهو يرقص مـعها ، وأحيانا يضمها إلى صدره أكثـر مما يستلزمه مجرد الرقص ، ويقـرب أنفاسه من أذنيها فى تعـمد ظاهر .. وكانت تشعر بكل ذلك فتـتجاهله أحيانا وتصده أحـيانا .. وكان إيلى نفسه جبـانا ، وكان يشعر أنه من مستوى أقل من مستـوى أمينة ومن طينة غير طينتها ، فلم يكن يلح فى غزله ، إنما كان يعتـمد على الزمن وعلى لباقة أخته فورتينيه ..

ولم تكن فورتينيـه تستغل لبـاقتهـا لمصلحة أخيهـا وحده ، فكانت تنقل إلى أمينة أخـبار كل المعجبين بهـا ، وتلح عليها أن تقبل دعوة هذا أو ذاك ، وقـد استمرت فى إلحاحهـا حتى قبلت أمينة أن تخـرج معها لأول مرة إلـى نزهة فى سيارة ومعـهما صديق فورتينيـه وشاب آخر مسلم كـان يسكن فى حى مصر الجديـدة .. وجلست أمينة فى المقـعد الأمـامى بجانب صـاحب السيارة وجلست فورتينيه مع صديقها فى المقعد الخلفى ..

وتوغلت السيـارة فى طريق الماظة .. وقطعت أمينة حديثـها والتفتت إلى الخلف لتوجـه لصديقتها سؤالا ، فإذا بصـديقتها بين ذراعى الشاب وقد التصقت به حـتى تكاد تختفى فى ثيابه وإذا بشفتيـها قد التقتا بشفتـيه فى عناق طويل عنيف حتى لم تعد شـفتـاها تبين من شـفتيـه ، وإذا بيده فـوق رأسـهـا وقد انتفضت عروقـها وارتعشت من النشوة كأنما إصـابتها حمى ، بينما أصابعـه تجذب خصلات شعـرها فى قسوة عابثـة كأنها

أصـابع فنان مجـنون تعبث بأوتـار قيـثارة فـى لحن أنغامـه صراخ .

رأت أمـينة كل ذلك فى لمحة واحـدة ، فأعـادت رأسهـا إلى الأمام وقـد صعد الدم إلى وجنتـيها حـتى كاد ينبثق منهـما ، وتهدجت أنفاسها حتى كادت رئتاها تتخلعان فى صدرها ..

كانت المرة الأولى التى ترى فيها قـبلة حية بعد ما رأته على شاشة السينما وبعدما سمعته من صديقتها عن فنون القبل ..

ولم يثر فيهـا ما رأته إلا ذكرى تمقتها وتشمـئز لها .. ذكر الرجل الذى حـاول أن يعـتـدى عليهـا وهى فى العـاشـرة من عمرها .

واتسعت عـيناها .. كأنها تخاف شـبحا يقتـرب منها ويكاد يجثم فوق صدرهـا .. والتفتت فى سرعة وعصبـية إلى الشاب الذى يجلس بجـانبها ويقـود السيـارة ، ثم ابتعدت عـنه حتى التصقت بالباب وودت لو فتحته وقذفت بنفسها منه ..

ووقفت السيارة فى خلاء الصحراء ..

وساد صمت خيل إليها أنه دهر ..

ثم حاولت أن تتكلـم .. قالت كلاما لـيس له معنى ولا هدف ولكن أحدا لم يساعدها على الكلام .. فصـديقتها لا تزال غائبة مع صديقها فى قبلاتهما ، والشاب الذى بجانبها لا يتكلم ، إنما ينظر إليـها صامـتا وفى عـينيه بريق وعلى شـفتيـه ابتسـامة عابثة ، وقد مد ذراعه ووضعهـا فوق حافة مسند المقعد ويكاد يسقطها فوق كتفيها ..

وكفت عن الكلام ..

وخيل إليها أن شيئا سيحدث .. سيقترب منها هذا الشاب ويلف ذراعه حول خصرها ويجذبها إليه فى عنف ، ويمسك بخصلات شعرها فى قسوة حتى تعجز عن المقاومة .. ثم يدس شفتيها بين شفتيه ، وتشم رائحة أنفاسه الكريهة وهى تلفح وجهها .. تماما كما فعل الرجل الآخر عندما كانت فى العاشرة من عمرها ..

ودارت عيناها فى محجريهما كأنهما تبحثان فى رأسها عن وسيلة تدافع بها عن نفسها .. ستعضه فى ذراعه حتى يصرخ من الألم ، وستمزق وجهه بأظافرها ، وتصرخ حتى توقظ صديقتها من نشوتها .. و .. و ..

ولكن شيئا من هذا لم يحدث ..

إن الشاب لا يزال صامتا ينظر إليها وابتسامته العابثة فوق شفتيه وذراعه لا تزال فوق حافة مسند المقعد تكاد تسقط فوق كتفيها ..

وحاولت محاولة سلمية أخيرة فقالت :

– تعال نمشى على رجلينا شوية ..

ولدهشتها وافق الشاب وقال :

– تعالى !

وفتح باب السيارة ونزل ..

ونزلت ..

وسارا فوق الرمال يتحادثان حديثا متقطعا ، دون أن يحاول الشاب شيئا ، ثم عادا إلى السيارة وارتكنا على مؤخرتها ..

واقترب منها الشاب ..

ثم رفع ذراعه ..

وفي هذه المرة أسقطها فوق كتفيها ..

وأحست بوجهه يقترب منها .. وعادت إليها جميع صور الهجوم والدفاع التي تخيلتها .

ثم أحست بشفتيه تلمسان وجنتها ، فلم تتحرك ، إنها شعرت بوجنتيها باردة كقطعة الثلج تذوب في قطرات من العرق .. وابتعد الشاب بشفتيه كأنه اقشعر من هذه البرودة ، ثم عاد بهما ، وقبل أن يصل إلى وجنتها مرة ثانية ابتعدت عنه ، وقالت له في لهجة حاسمة :

– أرجوك .. لازم أرجع البيت دلوقت ..

ولم يجادلها الشاب ، وعاد إلى السيارة ، ونظر الشاب إلى الفتى والفتاة اللذين بداخلها ، وقهقه ضاحكا وهو يصيح :

– يا جماعة خليكو معانا شوية !!

ولم تنظر أمينة إلى داخل السيارة ، إنما جلست مكانها صامتة .

وعادت السيارة .

ونزلت أمينة في العباسية قبل أن تصل إلى بيتها بقليل ، وسارت وفي صدرها محكمة تحاسبها حسابا عسيرا وتوجه إليها ألف سؤال : لماذا عرضت نفسها لهذه التجربة ؟ لماذا خضعت لإلحاح فورتينيه ؟ وإذا لم يكن شيء قد حدث هذه المرة ، فماذا يمكن أن يحدث في المرة القادمة ؟!

وخيل لها أن كل من يمر بها وينظر إليها يعلم أين كانت ،

ويرى على وجنتها آثار قبلة سخيفة ، وخيل لها أن من حقها أن توقف كل من يمر بها وتؤكد له أن شيئا لم يحدث ، وأن هذه القبلة إنما اغتصبت منها ؟!

ورغم ذلك فلماذا تضفى على ما حدث كل هذه الخطورة ، وتجعل منه أمرا جللا ..

ماذا لو قبلها رجل ؟! وماذا لو منحت من نفسها أكثر من القبل ؟!

إنها حرة ..

حرة كصديقتها فورتينيه التى ترى من حقها أن تمنح قبلاتها لمن تشاء ، بل إن فورتينيه منحت لمن شاءت كل شيء ، دون أن تعتبر أنها خسرت شيئا ..

ولكنها لا تريد .. لا تريد هذه القبلات ، ولا هذه الخلوات ولا تريد أن يقرب جسدها رجل .. وإذا كانت فورتينيه حرة فى أن تمنح ، فهى حرة فى أن لا تمنح !..

وعادت إلى بيتها مهمومة النفس مثقلة الضمير لا لأنها فعلت شيئا يخالف ما نشأت عليه من تقاليد ، ويخل بالشرف .. بل لأنها فعلت شيئا لم تكن تريد أن تفعله .

ورغم ذلك فقد عادت إلى حى الظاهر فى اليوم التالى واليوم الذى يليه .. وكانت قد أصبحت شخصية لامعة فى الحى ، كما كانت شخصية لامعة فى حى العباسية ، وتعرفت على فتياته وفتيانه ، فكانت تدعى إلى بيوتهم ، وتشاركهم لهوهم ورقصهم وحفلاتهم الصغيرة ، وتذهب معهم إلى ميدان الانزلاق - (الباتيناج) - فترقص على القباقيب ذات العجل ،

وترقص بلا قبـاقيب وبلا عـجل ، وتشترى (الجـيلاتى) فى قراطيس من البسكوت تلعقه بلسانها وهى تدور بين أصدقائها ضاحكة لاهية كما كانت تفعل وهى طفلة .

وعرف عنها أنها لا تقبل دعوة تقتصر عليها ، فهى تريد أن تكون دائما بين كثيـر من الفتيان وكثير من الفـتيات .. وعرف عنها أنها تكره أن يغازلها أحد وإنها أحيانا تسخر ممن يغازلها وتفـضحـه أمام الجـميع ، وأحـيانا تصـده بعنف وقسـوة بل لا تتورع أن تصـفع من يحاول أن يثقـل عليها بغـزله .. وقيل عنها إنهـا رغم سمرتهـا الساخنة فهى باردة الاحـساس برود الثلج ، وإنه رغم انوثتهـا الفائرة فهى مـيتة العاطفـة .. وكانت تسمع مـا يقال عنهـا فتـثور ، فهى ليست باردة ولا ميـتة .. ولكنها حـرة فى إحساسهـا وعواطفها ، ولن تسـمح لأحد بأن يملى إرادته على هذا الإحساس أو هذه العاطفة !..

وأشعرتهـا هذه البيئة الجـديدة التى انتقلت إليها بـكثير من الحرية التى لم تكن تتوافر لها فى حى العباسية ..

ورغم ذلك فهى لم تكن سعيدة ..

وخيل إليها أن حرصهـا على أن تعود إلى البيت فى الساعة السـادسة هو الذى يحـد من سعـادتها ، وإنهـا لو انطلقت إلى أبعد من ذلك ، لوجدت مزيدا من الحرية ، ومزيدا من السعادة.

وقد انطلقت ..

وعادت إلى بيتها فى الساعة التـاسعة مساء ، وكانت العائلة قد قـضت الساعات تبـحث عنها حتى كـادت تبلغ البوليس عن غيبتها .. وكانت عمتها قد أصبحت كالمجنونة تدور بين النوافذ

والشرفات فى انتظارها ، وزوج عمتها قد أصبح يغلى كالمرجل يتلهف على سلامتها حينا ويسخط عليها حينا ، ويسب ويلعن فى كل الأحيان ..

وفتح زوج عمتها لها الباب ، ونظر إليها كأنه يريد أن يهشمها ، ولكنه رأى على شفتيها الابتسامة الساخرة التى تعودت أن تواجهه بها كلما ثار عليها وهم بضربها .. فجن .. وصفق الباب فى وجهها قبل أن يسمح لها بالدخول وصاح :

- انجرى روحى مطرح ما كنتى .. ما دخلش بيتى بنات شوارع .. الله يلعنك .. الله يلعنك ..

ثم سمعت من وراء الباب صوت عمتها ملتاعة تصرخ :

- أمينة .. بنتى .. أمينة ،، حرام عليك ترميها فى الليل ..

ولم تقف طويلا أمام الباب ، واخذت تهبط السلم وصراخ عمتها وزوج عمتها يتلاشى من أذنيها ، إلى أن وصلت إلى الطريق مرة أخرى .

استندت إلى الحائط .. ثم بكت ، بينما شعاع بعيد من مصباح الطريق يحاول أن يصل إليها ، ويطوف بوجهها كأنه يحاول أن يمسح دموعها عن وجنتيها ..

ولم تكن تبكى لأنها طردت من البيت ، فطالما تمنت أن تهرب منه ، ودائما كانت تحس أن هذا البيت ليس بيتها .. ليس بيت أبيها ولا بيت أمها .. إنما بكت لأنها أحست بعجزها ، ولأنها كانت لا تدرى أين تذهب ..

ولأنها تأكدت مرة ثانية أنها ليست حرة !!



٤

ولم يطل بكاء أمينة ، فقد خرج وراءها أكبر أبناء عمتها يجرى ملهوفا باحثا عنها ، ولم تكد تراه حتى كفكفت دموعها ، وعاودها عنادها ، وهمت بالمسير وإن كان شىء فى دخيلة نفسها يتمنى أن يلحق بها ابن عمتها ويمنعها من المسير .

وقد لحق بها وأمسك بذراعها في رفق ، فجذبتها منه بعنف ، وهى تقول محتدة فى صوت هامس حتى لا يلتف

الناس حولهما :

– سيبني .. ما حدش فيكم له دعوة بيه .. النهاردة آخر يوم بيني وبينكم ..

وقال لها ابن عمتها في صوت حنون :

– عيب يا أمينة ده أنا أخوكي .. تعالى ارجعي معايا البيت .. معلهش .. استحملي بابا علشان خاطري ..

وقالت وكأنها تنعي نفسها :

– بابا عمره ما يطردني من البيت .. ده مش بابا !!

قال وكأنه يعاهدها على أيام العمر كله :

– ما حدش يقدر يطردك من البيت أبدا .. ده بيتك أنت ، ولو خرج كل الناس منه ، أنت ما تخرجيش .. تعالى معايا وكفاية عناد ..

وكانت تحب ابن عمتها ، وتعتبره فعلا أخا لها ، وكان في مثل سنها .. وربما أحبته لأنه كان دائما بعيدا عنها ، لا يسألها شيئا ، ولا يعلق على تصرف من تصرفاتها ، وكان يقتسم معها الكثير من قسوة أبيه وأمه ، فقد كان من هواة العزف على الكمان ، وكانت هوايته هذه تشغله عن مذاكرة دروسه ، فكان يرسب في الامتحان حتى أنه لا يزال في السنة الثالثة ثانوي بينما هي قد وصلت إلى التوجيهي . وكان يتحمل قسوة أبيه وأمه في صمت وصبر ، لا يحتج ولا يثور ، إنما يعود إلى كمانه كلما خرج أبوه ، يشكو له آلاما لم يبح بها لأحد ..

ولم يثر في حياته إلا مرة واحدة ، عندما اغتصب أبوه منه الكمان ووضعه في دولابه الخاص وأغلق عليه بالمفتاح ، فقد

بكى يومها وهدد بالانتحار ، ولم يشفع له بكاؤه وتهديده ، وكاد ينتحر فعلا ، لولا أن أمينة أسرت إليه بأنها تملك مفتاحا يفتح دولاب أبيه .. وكانت بعد ذلك تنتهز غياب الأب والأم عن البيت وتخرج له الكمان فيحتضنه ملهوفا كأنه عاشق يضم فتاته فى لقاء مختلس ، ثم يبكى على أوتاره بينما تشاركه بالعزف على البيانو وكأنها تكفكف له دمعه ..

وكان حبها له يشوبه بعض التعالى فهى تحس بأنها أقوى منه ، وأكثر منه ذكاء ، ويشوبه بعض السخط لضعفه واستسلامه ولانطوائه على نفسه ، ويشوبه بعض الشفقة لهذا النحول الذى يرسم خطوط وجهه ويزداد يوما بعد يوم كأنه يد فنان قاس لا يرحم الحجر فينهال عليه بأزميله ليبرز وجه شاب مريض ..

وكان حبها له يشوبه كثير من الغيظ ، فهى تغتاظ منه لأنه لا يستطيع أن يكون كعباس ، يسير فى مثل خطواته القوية التى يكاد يشعل بها الأرض نارا ، ويبدو كبيرا .. كبيرا جدا .. بل إنها تغتاظ منه لأنه لا يستطيع أن يكون حتى صديقا لعباس فيدعوه إلى البيت !..

ولم تكن مجرد لهفة ابن عمتها عليها تكفى لتعود معه إلى البيت .. إنها تعلم أنها يجب أن تعود ، فهى ليست حرة فى ألا تعود مادامت لا تعلم اين تذهب ومادامت لا تستطيع أن تعول نفسها .. ولكنها إن لم تستطع أن تحصل على حريتها ، فيجب - على الأقل - أن تصون كرامتها ولن ترضى بأقل من أن يعتذر لها زوج عمتها ، وأن تلح عليها عمتها فى العودة ..

وماذا إن لم يعتذر زوج عمتها ولم تلح عمتها ؟

وفكرت مرة ثانية أن تذهب إلى أبيها ، وتصورت أنها لن تجده فى بيته فى هذه الساعة فقد تعود أن يخرج كل مساء ولا يعود إلا فى آخر الليل ، وتصورت نفسها وقد جلست على عتبة الباب فى انتظاره ، ثم أغفت ونامت على البلاط كأنها لقيطة مشردة لا يسترها ليل ولا يحميها نهار .. ثم وجدت نفسها تفكر فى عباس .. لماذا لا تذهب إليه وتحتمى فى صدره الكبير من همومها وحيرتها ؟ و .. ولم تتماد فى تفكيرها فقد ثارت على نفسها ثورة عنيفة عندما وجدت نفسها تفكر فى عباس ، وضربت الأرض بقدمها فى حدة وكأنها تصفع خيالها لأنه انصرف إلى التفكير فى عباس .. من هو هذا العباس المغرور التافه ، من هو منها ، وما نصيبها منه إلا هاتان الأذنان اللتان تحتقنان كلما مر بها ؟..

وأخرجها من ثورتها على نفسها ، أن برزت عمتها إلى الطريق وهى مرتدية معطفها الأسود فوق ثوبها المنزلى ، وفى قدميها « شبشب زحافى » وقد انتثر شعرها فوق رأسها وخلا وجهها المكتنز من الأصباغ ، وبدت عليها اللهفة كأن قلبها يسبق خطواتها .. ولم تكد ترى أمينة حتى اندفعت إليها قائلة فى صوت هامس :

– تعالى يا بنتى حقك عليه ..

وعاود أمينة عنادها :

– آجى إزاى يا نينة بعد ما طردتونى وقفلتم بابكم فى وشى .

وقالت العمة فى توسل :

– تعـالى يا بنتى ربنا يهديكـى .. تعالى الدنيـا ليل ، والليل غدار ..

وطاف بقلب أمينة احساس خبـيث وكأنها تريد أن تتشفى ، وأن تستزيد من توسلات عمتها ، فقالت فى لهجة حزينة :

– أنا خلاص مـاليش بيت .. ماليش حـد إلا ربنا يعمل فـيه اللى هو عايزه ..

وتوسلت العمة مرة أخرى :

– ربنا يسـترك ويسـتر شبـابك .. ياللا يا حـبيبتى بلاش فضايح .. كفاية كده !

وقالت أمينة وهى تصر على عنادها :

– اللى فضحنى هو اللى طردنى ..

وقالت العمة وهى تكاد تبكى :

– حـرام عليكى يا أمـينة ، ده أنا نازلة لك بجـلابية البـيت ورجلية عريانة ، الناس تقـول علينا إيه بس يا اخواتى .. تعالى نتكلم جوه واللى أنت عايزاه حاعملهولك ..

وأحست أمينة بالخجل . وأحست أنها اقتصت من عمتها بما يكفى عندما أخـرجتهـا إلى الطريق « بجلابية البـيت » وعندما لاحظت أن وجهها خال من الأصـباغ وهو ما لم يحدث أبدا فى حياة عمتها ..

وسارت معها إلى داخل البيت وهى مطأطئة الرأس ..

ودخلتا توا إلى غرفـة أمينة دون أن يعترض سبـيلهما زوج العمة ..

وقالت العمة وقد جلست على السرير بجانب أمينة تحاول ارضاءها وتهدئتها :

– بس لو كنت أعرف كنت فين لغاية نصف الليل ..

– دى الساعة لسة ماجتش تسعة ..

– الليل أوله زى آخره .. كله ليل .. ده أنا فضلت لغاية ما أتجوزت وأنا ما أعرفش فانوس الشارع لما يولع يبقى شكله إيه ..

– الدنيا تغيرت يا نينة .. البنات كلهم بيخرجوا ليل ونهار ، اشمعنى أنا اللى عايزين تدفنونى بالحيا ..

– يا اختى ما بنات الناس كلهم قدامك أهم .. الواحدة منهم من المدرسة على البيت ، حقه ما فيش إلا انت يا أمينة فى الحتة كلها اللى دايرة على حل شعرك ..

– تحبى أقولك بنات الناس بيعملوا إيه ..

– لا ، بلاش السيرة دى .. بس طمنينى يا بنتى .. كنت فين لحد نص الليل ؟

– برضه نص الليل ..

– طيب ما تزعليش .. كنت فين لحد الساعة تسعة ؟

– يعنى حاكون فين .. رحت عند فورتينيه علشان آخد درس الفرنساوى زى العادة ، وكان عندهم عيد فضلوا ماسكين فيّه لغاية ما جيت .. وجت فورتينيه وأخوها وصلونى لغاية الباب ..

– طيب بس مش كنت تقولى يا أمينة علشان ما نتخضش عليكى .. ده أنا فضلت دايرة من الشباك للبلكونه زى المجنونة.. ياللا قومى استسمحى بابا وبوسى إيده ..

– بعد ما طردني ..

– بأه تصدقي أنه يطردك .. ده كان نازل وراكي قبلي ، لولا لحقته .. خفت دمه يفور تاني في وسط الشارع .. أصلك لو جيتي للحق يا أمينة انتي تفوري الدم ، أنا عارفة طالعة لمين ، لا أبوكي كده ولا أمك كده ، ولا حد في عيلتنا كلها بالشكل ده ..

وقامت أمينة لتعتذر لزوج عمتها ، لا لشيء إلا لتتخلص من عمتها وإلحاحها وكلامها الكثير ، ثم تخلو لنفسها ..

وما كاد زوج عمتها يراها حتى صرخ :

– غوري من وشي ..

وحدجته بنظرة تقدح شررا ، وهمت أن تعود إلى غرفتها ، لولا أن أمسكت بها عمتها وقالت لزوجها :

– معلهش يابيه .. دي اتأخرت معذورة ، وقالتلي على كل حاجة .. معلهش المسامح كريم ، ودي حتكون أول وآخر مرة .

وظلت أمينة مديرة ظهرها له دون أن تتكلم ، وربما خشي أن يفلت الموقف من يده وتشتد أمينة في عنادها ، وتأبى أن تسأله الصفح ، فقال وهو يفتعل الغضب :

– والله ما حد خسرها إلا انت .. نهايته ، خللي الليلة تنتهي على خير !.

وضغطت العمة على ذراع أمينة ودفعتها إليه ، وهي تبتسم لها كأنها تهنئها بالنصر الكبير .. وطاوعتها أمينة وتقدمت إلى زوج عمتها وانحنت على يده تقبلها وترفعها إلى راسها ، ثم انصرفت إلى غرفتها دون أن تتكلم ..

وحاولت أن تنام .. ولكن شيئا وقف يطرد النوم من حولها ويشد جفنيها ويغلقهما فى سقف الحجرة .. شيئا كأنه هذه المحكمة التى تنتصب فى ضميرها كلما اخطأت أو كلما اعتقدت أنها اخطأت .. وكانت تخاف كثيرا من هذه المحكمة التى تنتصب لها كل مساء ، فإذا ما وضعت رأسها لتنام سمعت صوتا ينبعث من صدرها كأنه صوت « حاجب » الضمير يصيح : « محكمة !!» ويبدأ بعدها الحساب ، فإذا كانت صفحة يومها بيضاء نامت نوم العافية والهناء ، وإذا كان هناك ما يشوب يومها أرقت وتقلبت فى فراشها كأن يدا مجهولة قاسية تشويها على جمر النار وتحرص على أن تحرق كل قطعة من بدنها ..

وقد حكمت المحكمة عليها فى هذه الليلة بالعذاب .. لقد أخطأت ، وكذبت على عمتها عندما قالت إنها كانت تحتفل بالعيد مع فورتينيه احتفالا عائليا ..

لقد كانت الليلة فعلا ليلة عيد من أعياد اليهود ، وقد تعودت أن تحتفل مع أصدقائها اليهود بأعيادهم ، حتى الأعياد الدينية المحض كانت تشاركهم الاحتفال بها .. كانت تحتفل معهم بعيد « يوم كيبور » أو « العيد الكبير » أو « عيد الصيام » الذى يعتزل فيه اليهود ـ أو المتدينون منهم ـ الناس ، وقد يقفلون على أنفسهم الأبواب يتعبدون ويصومون عن الطعام والشراب أربعا وعشرين ساعة متتالية .. وكانت تحتفل معهم بعيد « البيساح » أو « عيد الفصح » الذى لا يأكلون فيه شيئا ـ ولمدة أسبوع ـ سوى خبز خاص رقيق من عجين غير مخمر ،

وفى الليلة الأخيرة من هذا العيد تجتمع الأسرة حول مائدة العشاء ويتلو رب العائلة بعض الصلوات والأوردة ، ثم يتكلم الابن الأكبر فيوجه إلى رب العائلة عدة أسئلة تقليدية محفوظة، كأن يسأله :

– يا أبتاه .. لماذا ميزت الليلة عن بقية الليالى ؟

فيجيب رب الأسرة :

– لأن الرب فى مثل هذه الليلة عطف على شعبه المختار ، وخلص بنى إسرائيل من الأسر الفرعونى وأوصلهم سالمين إلى فلسطين ..

ويسأل الابن الأكبر :

– ولماذا نأكل من هذا الخبز ؟

فيجيب رب الأسرة :

– استعادة لذكرى عطف الرب على شعبه المختار عندما انزل علينا المن والسلوى ونحن تائهون فى صحراء سيناء ، فحفظنا من الموت جوعا ..

وقد بلغ من حب فورتينيه لأمينة أنها كانت تدعوها لتشاركها هذه الشعائر الدينية فكانت تجلس مع العائلة مدعية الخشوع والاحترام بينما تتبادل مع صديقتها الابتسام والغمزات ، فلم تكن فورتينيه ولا أخوها إيلى يحترمان كثيرا هذه الشعائر ، كما لم تكن أمينة نفسها تحترم شعائر أعياد المسلمين ، وكما تعود الجيل الجديد كله على مختلف أديانه أن يهزأ من الشعائر الدينية ومن عقلية المتدينين ..

ولكن أمينة لم تكن تحتفل مع أصدقائها اليهود فى هذه

الليلة بعيد « يوم كيبور » أو عيد « البيساح » ، بل كانوا يحتفلون بعيد « البوريم » الذى يقام ذكرى لاستير ابنة مردخاى التى انقذت بنى قومها فى عهد الملك احشوبروش بأن راقت فى عينى الملك ووهبته نفسها .. وهو عيد مرح يقيمون فيه المساخر والمهرجانات ويقضون الليل فى لهو وصخب ، يسكرون ويرقصون ويأكلون البيض الملون ..

وقد دعيت أمينة إلى الاحتفال بهذا العيد فى بيت أسرة يهودية فى حى الظاهر ، أوسع ثراء من أسرة صديقتها فورتينيه .. وتعمد الفتيان والفتيات أن يبدأوا احتفالهم فى ساعة مبكرة من المساء لأنهم كانوا يعلمون أن أمينة لا تستطيع أن تبقى معهم طويلا وإلى ساعة متأخرة من الليل .. وقد سعدت أمينة بهم .. وانطلقت ترقص وتغنى ، وتهلل فى وجه كل منهم صائحة باللغة العبرية : « هاج سيماج » ـ أى عيد سعيد ـ ثم رقصت لهم رقصا شرقيا وهى تضع على رأسها طرطورا مزخرفا ، بينما صديقتها فورتينيه تعزف لها على البيانو لحن « رقص الهوانم » .. كانت ترقص كعود من الشهد لا يستطيع لفرط طراوته أن يتماسك ، فيهتز وتتحلب له الشفاه وتتطاير القلوب من حوله لتسقط تحت قدميه ..

ولم تشرب ليلتها كما شربت بقية البنات ، أو على الأصح شربت كأسا واحدا من « المانت » لا يسكر .. ورغم ذلك فقد تسامحت كثيرا مع الفتيان وتركتهم جميعا يقبلون وجنتيها وكل منهم يحاول أن يكبت عواطفه وإحساسه وألا يترك لقبلته معنى إلا معنى تحية العيد ..

وفجأة وفي الساعة التاسعة ، قررت أن تعود إلى البيت ، وكأنها « سندريلا » وقد فاجأها منتصف الليل وهي ترقص بين ذراعي الأمير ، فهرعت مخلوعة القلب عائدة إلى بيتها المتواضع خوفا من غضب ملاكها الحارس ..

ولم تصحبها إلى البيت فورتينيه وأخوها فقط كما قالت لعمتها ، بل صحبها أيضا عشرة من الشبان في سيارة ، وكان أحدهم يلف ذراعه حول كتفيها طول الطريق ، وينقر بأصابعه فوق ذراعها ، وقد سكتت عليه ، وكانت تستطيع أن تتخلص من ذراعه وأن توقف أصابعه الجبانة من النقر فوق ذراعها ، بل إن الجميع كانوا يخافونها فعلا ويخافون ثورتها إذا تسلل أحدهم بيده إليها .. ولكنها في هذه المرة سكتت لأنها لم ترد أن تفسد على الجميع نشوة العيد ، ولأنه كان سكران وكانت تعلم أنه لو كانت بجانبه فتاة أخرى لتمادى إلى أبعد من هذا .. إلى بعيد جدا ..

هذا هو ما حدث في تلك الليلة ..

ولم تكن أمينة تتعذب وهي تحاسب نفسها ، لأنها تأخرت في العودة إلى بيتها وأزعجت عمتها وزوج عمتها ، ولا لأنها رقصت ، ولا لأنها سمحت للفتيان بتقبيل وجنتيها فقد كانت كلها قبلات بريئة ـ ولو في مظهرها ـ وكانت قد تعودت على هذه اللمسات العابرة حتى لم يعد ضميرها يحاسبها عليها ..

ولكنها كانت تتعذب لأنها كذبت ، وهي لا تحب أن تكذب ، وتحس بالحطة وبجرح كرامتها كلما كذبت ..

لماذا لا يمنحونها الحرية لترقص وتلعب وتخالط الفتيان حتى لا تضطر إلى الكذب عليهم ؟

لماذا لا يكون من حقها أن تدعو هؤلاء الفتيان إلى البيت وترقص معهم أمام أهلها جميعا ، كما هو من حق صديقتها فورتينيه ؟

ماذا يمكن أن يحدث .. وأى خطيئة فى أن تكون حرة .. إنها على الأقل لن تكذب !!

وتجمع عذابها فى دموع انسابت من جديد فوق وجنتيها ..

بكت لأنها كذبت ..

وبكت لأنها ليست حرة فى قول الصدق ..

ثم تهاوت جفونها تحت ثقل دموعها .. فنامت فى أحضان العذاب !!



٥

وسارت أمينة مع الأيام ..

وكانت سيرتها وأنباء اختلاطها بفتيان وفتيات حى الظاهر ، قد طافت فى كل بيت فى العباسية .. فحرمت الأمهات على بناتهن الاختلاط بها ، وضرب الشيوخ كفا بكف حسرة على ضيعتها ، وثار شبان العباسية واجتمعوا أكثر من مرة لوضع خطة للهجوم على حى الظاهر وضرب فتيانه انتقاما

لشرف العباسية التى أهينت فى شخص أمينة .. ولكنهم كانوا يتسللون الواحد بعد الآخر إلى ميدان الانزلاق « الباتيناج » ليشاهدوا أمينة وهى تلعب ، وكل منهم يمنى النفس بشىء منها ، فقد شاع بينهم إنها فتاة سهلة تمنح كل شىء لكل شخص ، فإذا كانت قد منحت شيئا لفتيان الظاهر فأولى بها منهم فتيان العباسية .. أولاد حتتها !!

وكانت أمينة تلمحهم فى ميدان الانزلاق وهم مرتكزون على السور الخشبى يتبعونها بأعين وقحة شرهة أو ساخرة أحيانا ، وربما سمعت بأذنيها مرة أو مرتين تعليقا فاجرا يقذفونها به .

ولم تكن تهتم بهم ولا بما تسمعه منهم ..

كانت تحتقرهم وتتهمهم بضيق العقل وسفالة الخلق ، وكانت تفضل عليهم أى شاب يهودى يستطيع أن يحادثها دون أن يشتهيها ، وأن ينظر إليها دون أن يدور بعينيه حول نهديها وينزل بهما حتى ساقيها ..

لم تهتم إلا عندما رأت عباس يوما فى ميدان الانزلاق .. كان يقف بعيدا مرتكزا على السور يراقب كل اللاعبين إلا هى .

هل يصدق هو الآخر ما يقال عنها من إشاعات ؟

وهل جاء ليتحقق مما سمعه ؟

وهل جاء خصيصا لها ؟

وارتبكت خطواتها فوق القبقاب ذى العجلات حتى كادت تقع على ظهرها ، ثم تعمدت أن تمر من أمامه عله ينظر إليها.. ولم ينظر وإنما ظل مديرا عينيه عنها ، ولكنها لمحت أذنيه وقد

احتقنتا حتى أصبحتا كقطعتين من كبده .. فضحكت ، وربما سمع ضحكتها فقد اعتدل فى وقفته وأدار ظهره واتجه نحو باب الخروج ، ووقفت تتبع خطواته القوية التى يخبط بها الأرض كأنه يريد أن يشعلها نارا .. ثم هزت كتفيها وحاولت أن تعود إلى الانزلاق ولكنها كانت تحس بشىء يقبض قلبها ، كأنها أغضبت عباس وكأن ليس من حقها أن تغضبه ..

وحاولت أن تثور على هذا الانقباض ، وأن تقنع نفسها بأنها حرة تغضب من تشاء وترضى من تشاء .. ولكن الانقباض ظل يجثم على صدرها حتى عادت إلى البيت ..

وكانت عمتها فى هذه الأثناء قد أسلمت أمرها فيها لله ، فلم تضربها ، ولم تعنف فى معاملتها ، وإنما ظلت دائما تخاف عليها من أن تهرب من البيت أو أن ترتكب إثما كبيرا ، وصبت كل لعناتها وحنقها على فورتينيه واكتفت بأن تنصح أمينة بين حين وآخر بأن تبتعد عنها ..

وزوج العمة أيضا ، بدأ يكبت غضبه عليها .. لم يعد يضربها هو الآخر أو يقسو عليها ، وإنما أدار وجهه عنها على مضض وأصبح لا يسأل الله شيئا إلا الستر وأن يجنبه الفضيحة بين أهالى الحى ..

وأحست أمينة بأن اليد التى كانت تقبض على حريتها قد انبسطت عنها ، وأصبحت تخرج وتعود دون أن يسألها أحد لماذا خرجت ومتى عادت .. وخيل إليها أنها تستطيع أن تكون سعيدة بهذه الحرية ، ولكنها بدل أن تشعر بهذه السعادة ، بدأت تشعر بنوع جديد من الشقاء ، فقد خيل إليها أن عمتها

وزوج عمتها قد اتفقا على إهمالها ، وتخليا عن رعايتها ، وأصبحت تغار كلما رأت أحدهما يعنف واحدا من أولاده ، أو يحرم عليه الخروج ، أو يأمره باستذكار دروسه ..

أحست بوحدة قاتلة وهى بين أفراد العائلة ، وأحست بفراغ كبير مخيف ، ثم أحست بنوع من المسئولية الضخمة تقع على كتفيها .. أصبحت مسئولة عن هذه الحرية التى حصلت عليها بعنادها وبعد معركة عنيفة بدأتها منذ أن ولدت وبين شفتيها صرخة لا تسكت ، وانتصرت فيها على تقاليد عائلتها وتقاليد العباسية وألسنة الناس .. أصبحت مسئولة أن تثبت لأبيها وأمها وعمتها وزوج عمتها أنها تستحق هذه الحرية وأنها تستطيع أن تصونها ، وإنها شابة عاقلة قوية ليست فى حاجة لمن يرعاها ومن يعنفها ، ولا لمن يضربها بالشبشب ..

ودفعها هذا الشعور بالمسئولية إلى أن تحرص على أن تبدو جادة عاقلة ، فلم تعد تشتط فى تصرفاتها ، ولم تعد تسرف فى التردد على حى الظاهر والاشتراك فى الحفلات الراقصة .. وأصبحت تحس بلذة عميقة وهى تعود إلى البيت عقب خروجها من المدرسة مباشرة ، ثم وهى تجلس فى البيت كأى فتاة مخدرة محرم عليها الخروج ، وكان إحساسها هذا فيه بعض الشماتة بعمتها وزوج عمتها، وكأنها تريد أن تقنعهما بأنها ليست في حاجة إلى رعايتهما لتكون فتاة طيبة ..

ثم حدث تطور كبير فى حياتها .. فقد ملت رياضة الانزلاق وملت الرقص مع الفتيان ، وملت هذه الحفلات ، بل ملت صديقتها فورتينيه نفسها ، وبدأت تحس أن هناك دنيا أوسع

وأرحب من هذه الدنيا التى يعيش فيها حى الظاهر وسكانه اليهود .. ولم تكتشف هذه الدنيا التى تخيلتها ، ولكنها وجدت نفسها تندفع مرة واحدة إلى القراءة .. أخذت تقرأ كثيرا .. قضت أيامها كلها تقرأ .. وقرأت فى شهور ما لا يستطيع أى فتى أن يقرأه فى سنوات .. وكانت قراءتها كلها فى القصص .. قرأت لتوفيق الحكيم وطه حسين ومحمود تيمور ، وقرأت بالفرنسية لبازاك وفيكتور هيجو ومورياك وفولتير ، وقرأت بالانجليزية لأوسكار وايلد ولورنس وديكنز وجين أوستن ووالترسكوت .. كانت تقرأ هذه القصص فى الترام وفى المدرسة ، وفى حصص اللغة الفرنسية التى كان المدرس يعفيها من الانتباه فيها بعد أن سبقته فورتينيه فى تدريسها لها ، ثم كانت تعود إلى البيت لتغلق على نفسها حجرتها وتستمر فى القراءة .. لقد اندفعت وتطرفت فى القراءة كما تعودت أن تندفع وتتطرف فى كل شىء .. وكان زوج عمتها يرى الكتب التى تقرأها والتى تشغل كل وقتها ، فيهز رأسه أسفا ويصر على أنها لابد راسبة فى الامتحان .

ولكنها لم ترسب .. نجحت وحصلت على شهادة التوجيهية قسم أدبى ، واستراحت من مدرسة السنية ، ومن ترام الخليج .

وكان عليها بعد ذلك أن تعلن معركة أخرى دفاعا عن حريتها ، كانت تريد أن تلتحق بالجامعة .

وكانت عمتها وزوج عمتها يصران على أن تتزوج .. كانت عمتها تريد تزويجها لتفرح بها وتنشغل كما تنشغل بقية

الأمهات فى استقبال « العرسان » وإعداد الجهاز والدعوة إلى حفلة العرس ، وقد انتظرت هذا طويلا وكانت تعتبره ثوابها الوحيد على ما تحملته فى سبيل تنشئة أمينة وتربيتها .

وكان زوج العمة يريد زواجها لينتهى منها ، وليجد رجلا آخر يحمل عنه مسئوليتها ويتحمل تصرفاتها ..

وكان سيل الراغبين فى الزواج قد انقطع عن أمينة منذ سنين .. منذ أن عرف أهالى العباسية أنها ستستمر فى دراستها حتى تنال « التوجيهية » ، ثم منذ أن ساءت سيرتها وانتشرت حولها الإشاعات .. فقد أحجم الرجال عن التقدم للزواج بها خوفا من تحمل نزواتها التى عرفت عنها .. وربما اشتهاها البعض ، بل إن الكل يشتهونها ، وربما أحبها أحدهم ، ولكن أحدا منهم لم يفكر فى الزواج بها ، حتى هذا الذى يحبها، فلم يكن الحب فى العباسية يكفى للزواج ، بل لم يحدث بين العائلات الكبيرة فى العباسية كلها حتى عام ١٩٣٧ إلا واقعة حب واحدة انتهت بالزواج ، بعد أن اضطرت الفتاة أن تهرب مع الفتى ، واضطرت الأم أن تموت حسرة على ابنتها وخجلا من الفضيحة !!

وكانت العمة تعلم ما يدور حول أمينة من إشاعات ، وما تتهامس به سيدات الحى عن سيرتها ، وكانت تعلم أنها لن تجد بينهن أما ترضى بتزويج ابنها لها .. ولكنها لم تعدم وسيلة ، وشحذت ذكاءها كله فى البحث عن عريس ، فبدأت ترسل وراء الخاطبات وتوزع عليهن صور أمينة وتمنى كل منهن « بالحلاوة » ، وبدأت تزور العائلات التى تسكن بعيدا

عن العباسية والتى لم تزرها منذ سنين ، وبدأت تعيد عهد « المقابلات » التى تعودت فى الماضى البعيد أن تقيمها فى بيتها وأخذت تدعو إليها سيدات من هنا وهناك لا تعرف عن معظمهن إلا اسماءهن وأسماء عائلاتهن وأزواجهن وابنائهن ، ثم تلح على أمينة أن تستقبلهن معها ، وأن تعزف لهن على البيانو .. فتجلس بينهن وعيونهن تكاد تخلع عنها ثوبها ، وتتحمل أسئلتهن الساذجة وحديثهن الممل وكل منهن تصر على أنها « عروسة ابنى » ولكنهن كن ينصرفن ليبدأن فى سؤال عائلات الحى عنها وعن أخلاقها وعن ثروتها وعن أبيها وأمها ثم تقرر كل منهن نزع لقب « عروسة ابنى » عنها !..

ورغم ذلك عثرت العمة على « عريس » لأمينة .. كان شابا ناجحا صالحا من سكان حى حدائق القبة ، يعمل مهندسا فى الحكومة . وقد رأى أمينة رؤية عابرة ، وأعجب بها إعجابا متزنا جديا ، فلم يكن يأخذ شيئا من الأمور إلا مأخذ الجد ، ولم يكن يسمح لعواطفه أن تدفعه أو تهوى به ، فقد كان من هذا الصنف من الشباب الواثق من شخصيته ومن عقليته ، وكان بينه وبين نفسه يعتقد أنه يستطيع أن يشكل أى إنسان كما يريد تشكيله ، ويستطيع أن يسيطر على أى امرأة وأن يسيرها مادام قد اختارها زوجا له ..

وتردد على بيت العائلة خاطبا ، ولم يكن له أب ولا أم يصحبانه فى زياراته ، ورفضت أمينة أن تقابله مرة ومرتين ، ثم رضيت تحت الحاح عمتها ، وربما رضيت لأنها أرادت أن تجلس إلى هذا الجرىء الذى جاء إليها خاطبا ، ولأنها أرادت

أن تسخر منه وأن تلقى عليه درسا تأديبيا له على جرأته .. وقد دخلت إليه فعلا وعلى شفتيها ابتسامة هازئة وقد رفعت إحدى حاجبيها كأنها تحتقره .. ولكنها لم تلبث طويلا حتى اختفت ابتسامتها الهازئة ، وعاد حاجبها إلى مكانه هادئا كأنه استغرق فى نوم مريح فوق عينيها ، ووجدت نفسها قد تاهت ساعة وبعض الساعة في صوته العميق المليء وهو يحدثها عن كل شيء .. عن الحياة ، عن الفن ، عن الكتب ، عن الوطنية ، عن السياسة .. بل إنه حدثها عن الحب ولفها فى حديثه حتى شعرت إنها ارتفعت من فوق مقعدها لتعيش فى أسطورة .

إنه صنف جديد من الشباب لم تلتق به قبل اليوم .. إنه رجولة ناضجة راسخة على قدميها كالجبل ، تخافه وتحتمى به ، وتصعد إليه ولا ينزل إليك . .

ورفعت رأسها كأنها أمرت أن ترفعه ، ونظرت إليه فإذا بعينين هادئتين ثابتتين لا تطوفان بنهديها وساقيها كما تطوف عيون شباب الحى ، وإذا بأذنيه طبيعيتين لم تحتقنا كما تحتقن أذنا عباس ، وإذا على شفتيه ابتسامة تكاد لفرط ما ترسمه من ثقة بالنفس تصيح : أنا هنا ..

وعندما قام لينصرف ، أحست إنها انصرفت معه ..

●●●

وكثر تردد الخاطب الجديد على البيت حاملا إليه هدايا الفاكهة والحلوى والشيكولاتة ، وكثر جلوس أمينة إليه ، ومعهما دائما أحد من أفراد العائلة .. عمتها أو زوج عمتها أو ابن عمتها .. وكانت قد عشقت أحاديثه ، وعشقت شخصيته

القوية وثقته بنفسه وابتسامته التى تصيح : أنا هنا ..

وأحست بجانبه إنها شىء هام وإنها فتاة كبيرة . أكبر من فتيان الحى ، وأكبر من عباس ، وأكبر من مجرد طالبة فى مدرسة السنية ، بل كادت تحس أنها أصبحت امرأة ..

وكانت قد أصبحت فعلا شيئا هاما فى البيت ، فالجميع يدللونها ولا يتحدثون إلا عنها وعن خطيبها الجديد ، وطلباتها كلها أصبحت أوامر ، وأصبحت عمتها تسرف فى شراء الأثواب الجديدة لها ، وأخرجت كل مصاغها ووضعته فى معصمى أمينة وفى أذنيها وفى جيدها ، بل إنها أسرت لها يوما :

– يا اختى ما تحطى شوية روج على شفايفك .. هو انت لسه صغيرة ، ما البنات كلهم دايرين بالأبيض والأحمر ..

قالتها وعلى شفتيها ابتسامة كبيرة وكأنها تحضها على خطيئة كبرى ، وتفتح لها بابا واسعا من أبواب الحرية ..

وأخفت أمينة ابتسامة فى صدرها ، فعمتها لا تعلم أن شفتيها قد ذاقتا « الروج » منذ زمن طويل ، وإنها فى كل مرة كانت تذهب إلى صديقتها فورتينيه كانت تقف أمام المرآة وتصبغ شفتيها ووجنتيها وتضع « الرميل » فى عينيها ، ثم تغسل وجهها قبل أن تعود إلى البيت .. ولم تكن تفعل ذلك لأنها تريده ، أو لأنها تعتقد أن هذه الأصباغ تزيد من جمالها ، بل فقط لأنها كانت محرمة عليها ..

ورغم ذلك فقد ادعت أمينة إنها تضع « الروج » لأول مرة ، ووقفت مع عمتها أمام المرآة تتضاحكان بينما احمرت وجنتاها

حياء .. وكـان حياء طبيـعيا فقـد كانت المرة الأولى التى تضع فيها « الروج » وتبدو به أمام عائلتها ..

ودخلت للقاء الخاطب الجديد وشفتاها مصبـوغتان ، ونظر إليها طويلا بعينيه الهادئتين الثابتتين ، وقال فى صوته العميق الملىء :

– انت فيكى حاجة متغيرة يا أمينة .

وابتسمت ابتسامة خجلة .. وقالت فى صوت ناعم :

– يا ترى إيه ؟

– انت حطة روج ؟

ـ أيـــوه ..

– تعرفى أنه مش لايق عليكى ..

ووجمت .. وسحبت ابـتسامتها الخجلة ورفـعت إليه عينين غاضبتين ، وارتعشت شفـتاها كأن أمواجا من الكلمات الثائرة تتكسر فوقهما .. وتصدت عمتها للموقف :

– حقه مالكش حق يا أحمد بيه .. ده لايق عليها ونص !.

ولمح أحمـد النظرات الغاضبة والشفتين المـرتعشتين فـقال كأنه يتقهقر :

– قصـدى إن الجمال الطبـيعى دايمـا أحسن .. خصـوصا جمال أمينة !.

وسكتت أمينة وعادت العمة تقول :

– وماله .. برضه مش عيب لما البنات تحط روج .

– يا ستى ما حدش قال عيب .. أنا موافق !.

وانفجرت أمينة :

– أنا مـا يـهـمنيش إنك توافـق .. كـفـاية أنا أوافـق ونينة توافق !..

وقال أحمد يعتذر :

– وما دام أنت موافقة وتانت موافقة ، يبقى أنا موافق !.

واستمرت أمينة في ثورتها :

– علشـان توافق لازم يكون من حـقك إنك مـا توافـقش .. وانت مالكش الحق ده !!

وتدخلت العمة مرة ثانية :

– خلاص يا أمـينة ما تكبـريش الموضوع وتفـتحي فـيه .. أحمـد بيه ما غلطش للدرجة دي ، ده بـرضه بقى منا وعلينا ، وكلنا بنحبك ونحب لك الخير .. مش كده يا أحمد بيه !..

قال أحمد وقد بدأ يتململ :

– طبعا .. طبعا .. أظن أمينة ما عندهاش شك في إننا بنحب لها الخير !..

ولم تجب أمينة وأدارت له ظهـرها وانصرفت إلى حجـرتها وهي تسمع صوت عمتها تقول :

– طول بالك عليهـا يا أحمـد يا ابني ، دي صـغيـرة وعنيدة موت ..

وقـد تجـمع عناد أمـينة كله في هذه اللحظـة ، وأغلقت على نفسـها حجرتهـا ، وأخذت تستعـرض أيامها منذ جاءها أحـمد خـاطبا ، وتكشـفت لهـا أشيـاء لم تتكشف لهـا من قبل ، لقـد عشقت حديثه وعشقت شخصيته ، ولم تتنبه قبل اليوم إلى أنه كان في كل أحاديثـه يتعمد أن يدحض آراءها وينتصـر عليها ،

وأنه كان يتعمد دائما أن يمحو شخصيتها بشخصيته ، وكانت تتقبل انتصاره لأنها لم تكن تلحظ أنه يتعمده ولم تكن تحس فيه بمعنى الانتصار ، وكانت تدع شخصيته تفرض نفسها عليها لأنها لم تكن تقارن بين شخصيته وشخصيتها أو تضع الحدود بينهما ..

ولكنها اليوم تنبهت إلى كل ذلك .. وبدأت تتخيله قيدا ثقيلا من الحديد يتلوى بجانبها كثعبان ضخم يحاول أن يقيد قدميها وذراعيها ثم يبتلعها .

كيف تتزوجه ! إنه رجل آخر يريد أن يغتصب حريتها ، ويحكم عليها كما حكم عليها من قبله زوج عمتها وعمتها ..

ومتى ستكون حرة إن رضيت أن تخرج من بيتها إلى بيت زوج يفرض آراءه وشخصيته عليها ويمد أنفاسه حتى إلى « الروج » الذى تضعه فوق شفتيها ..

متى إذن تتمتع بالحياة الحرة المنطلقة ..

متى إذن يكون من حقها أن تفعل ما تريد دون أن تضطر إلى الكذب ، ودون أن تخاف أحدا ، ودون أن يكون لأحد حق عليها ؟!

واشتدت ثورتها وعنادها ، وتشبثت بهذه الثورة وتعلقت بهذا العناد .. ولكن ثورتها هدأت إلى حين ، وعنادها تهاوى بعض الشىء ، واضطرت أن تضحك كثيرا عندما جاءها فى اليوم التالى وبين يديه عشرة أصابع « روج » هدية لها !!

وعادت تجلس إليه وتستمع إلى حديثه .. ولكنها كانت دائما متنمرة ، تعارض كل رأى يقوله وتصمم على أن تنتصر لرأيها

مهما تبين لها خطؤه .. بل إنها كانت تخاف منطقه وكانت تعلم أنها لو استسلمت لهذا المنطق القوى الهادىء فلا بد أن تسلم بالهزيمة وتقتنع برأيه ، ولذلك أصبحت مناقشاتها أقرب إلى مناقشات الأطفال ، فكانت تقطع عليه منطقه ، وتصرخ فى وجهه ، وتنتقل من موضوع إلى موضوع بلا رابط وبلا مناسبة وكأنها تخاف شيئا ، أو تفر من شىء ..

ولم تكن تخاف إلا منطقه ، ولم تكن تفر إلا من شخصيته.. تفر من هذا القيد الثقيل الذى يحاول أن يلتف حول قدميها وذراعيها ثم يبتلعها ..

ومرة ثانية ثارت عندما دعاها مرة إلى مشاهدة أحد الأفلام ودعا معها ابن عمتها ـ ولم يكن يسمح لهما بالخروج منفردين ـ ثم نظر إلى ثوبها قبل أن يغادروا البيت وقال :

– الفستان ده مفتح خالص يا أمينة .. ده كاشف ذراعاتك ومبين نصف صدرك ..

وضربت الأرض بقدمها وصرخت :

– مش عاجبك ..

– الفساتين المقفولة بتبقى أحلى عليكى ..

– إذا كنت حضرتك صعيدى .. لازم تفهم إنى مش صعيدية زيك ..

– مش مسألة صعيدى ولا بحراوى .. مسألة ذوق .. أنا ذوقى كده ومن حقى إنك تعرفى ذوقى .. أنا باعتقد إن كل حتة زيادة تبان من جسم الست تنقص جمالها حتة ..

– يعنى ألبسلك حبرة ، عايزنى البس ملس ..

- أنا ما قلتش كده .. و ..

- مش ضرورى تقول ، أنا مش خارجة معاك ، مش عايزة اروح سينما ، حد شريكى ؟!

قال وفى عينيه عتاب :

- أنا حبقى شريكك يا أمينة !!

ونظرت إليه باستخفاف وقالت وهى تهز كتفيها :

- ما أظنش !!

ثم دخلت حجرتها وأغلقت عليها الباب ، ولم يفلح أحد فى إخراجها منها ..

ورغم ذلك فقد عاد إليها ..

لقد أصبح يحبها ، وأصبح يجد صعوبة كبيرة فى التحكم فى عواطفه ، وأصبح يقبل على نفسه أن يتنازل عن كثير من مبادئه وكثير من كبريائه فى سبيل إرضائها .. ولكنه لم يفقد ثقته بنفسه ، ولم تزايله ابتسامته التى لفرط ما تحمل من الثقة فى النفس ، تكاد تصيح : أنا هنا .. وكان دائما موقنا من أنه يوم يتزوجها سيستطيع أن يروضها وأن يسيطر على ثورتها ويقضى على عنادها ..

واتفقت جميع الآراء على الاسراع فى تحديد موعد إعلان الخطوبة وأن يعقد القران فى نفس اليوم ..

وحدد الموعد فعلا ، ولم يبق إلا موافقة أمينة ..

وخرجت أمينة عليهم تقول فى عناد وإصرار :

- أنا حاخش الجامعة !..

وخبطت عمتها على صدرها وصرخت :

– جامـعة !! جامـعة لما تجمع عـضامك ، بعـد كل ده تقول جامـعة .. الله يتـعب قلبك ياأمينة يـا بنت أخوى زى ما تـعبت قلبى ..

وقالت أمينة فى هدوء :

– لازم أخش الجامعة ..

واستـدارت لها عمتـها وعادت تصرخ وهى تهـز يدها أمام وجهها :

– انت فـاكرة نفسك إيه يا بنت انت .. بنت باشـا ولا بنت وزير .. ده أبوكى بيحرق دمه كل يوم علشان يدفعلك القرشين اللى بتاكلى بيهم .. فاكرة نفسك جـميلة .. الجمال على قفا من يشـيل .. بنات أجـمل منك ألف مـرة مـرميـين ومش لاقـيـين يتجوزوا وكل واحدة فيـهم تتمنى ضفر الراجل الطيب المظلوم اللى جيلك .. أنا عارفة عاجبه فيكى إيه !!..

وقالت أمينة وهى تحاول أن تكون هادئة :

– مـافـيش لازمة للـكلام ده يا نينة .. أنا خـلاص قلت إنى حاخش الجامعة ومش حتجوز إلا لما أخلص ..

وصرخت عمتها من جديد :

– يا اخى قـالك القل وتعب السـر . جامـعة ايه يا اخـواتى بس ، حد يرفض النعمة برجله ويقول جامعة .. اعقلى يا أمينة ربنا يهديكى.. اعقلى باقولك أحسن أنا خلاص قربت أتجنن ..

ولم تجب أمـينة .. ودخلـت إلى حـجـرتهـا وأغلقت البـاب وراءها كعادتهـا ، وتركت عمتها تنتـحب وهى تضرب صدرها وتشد خصلات شعرها ، وكأنما بلغها نبأ وفاة ..

وعلم أحـمـد باصـرار أمينة عـلى أن تلتـحق بالجامـعـة ،

وحاولت العمة أن تخفف عليه وقع النبأ وتقنعه بأنها نزوة لن تلبث أمينة أن تعدل عنها ..

وسكت أحمد طويلا وقد عقد ما بين حاجبيه وزايلته ابتسامته التى تصيح : أنا هنا .. ثم طلب أن يقابل أمينة على انفراد ..

وقال لها وهما جالسان فى « أودة الضيوف » وقد أحنى رأسه بين يديه ، وحاول أن يحتفظ لصوته بعمقه وهدوئه :

– أقدر أعرف انت ليه عايزة تخشى الجامعة ؟!

– علشان أتعلم !!

– العلم مش فى الجامعة .. العلم فى الكتب ومش ضرورى تخشى الجامعة علشان تقرى أى كتاب .

– ما حدش يصدق إنى اتعلمت إلا لما يبقى فى إيدى شهادة .

– وعايزة الشهادة تعملى بيها إيه .. حتطبخى بيها .. حتربى بيها العيال ؟!

– تبقى سلاح فى إيدى استغنى بيها عن الناس ..

– حتى عن جوزك ؟!

– جوزى طول ما بيصرف على يقدر يذلنى ويفرض على إرادته ويعمل فيه اللى هوه عايزه .. أنا استحملت كثير علشان كنت محتاجة لعمتى وجوز عمتى ، وما أقدرش أفضل مستحملة طول عمرى علشان محتاجة لجوزى ..

– الجواز مش أكل عيش يا أمينة .. الجواز يعنى اتنين بيحبوا بعض ويثقوا فى بعض وعايزين يعيشوا مع بعض . والراجل ما بيصرفش على مراته علشان يذلها ، إنما لأنه

محتاج لها زى ما هى محتاجة له ويمكن أكتر ، وهمه الاتنين بيتعاونوا على الحياة ، هوه بيشتغل بره وهى بتشتغل فى البيت ..

– بتشتغل فى البيت خدامة .. يطردها وقت ما يعوز ، ويمرمط فيها زى ما هوه عايز .. وافرض إن الحب اللى بتقول عليه انتهى .. تعمل إيه الست ؟ تفضل مستحملة الهم ، لأنها مضطرة تعيش معاه ، ومضطرة تقعد فى بيته ، ومضطرة توكل نفسها وتوكل أولادها .. علشان كده لازم يبقى معايا شهادة علشان ما اضطرش أقعد فى بيت مش عايزه أقعد فيه.. وأبقى حرة ، وجوزى يفهم إنى زيى زيه ، أقدر استغنى عنه زى ما يقدر يستغنى عنى .. ويمكن لما يعرف كده يحترمنى ويبقى عليه ..

– عمر ما راجل احترم مراته علشان عندها شهادة ، وعمره ما بقى عليها لأنه عارف إنها مستغنية عنه .. الراجل بيحترم مراته لأنها ست محترمة ، وبيبقى عليها لأنه محتاج لها ولأنه سعيد بيها ولأنها جزء من حياته ..

وأنت خاسس عليك إيه .. مش يبقى أحسن لما آخد شهادة واشتغل وأحط فلوسى على فلوسك ونعيش أحسن ما كنا حانعيش .

– انت كمان عايزة تشتغلى ؟..

– وليه لأ ؟

– شغل البيت كفاية على الست .. ده شغل عايز وقتها كله .

– يعنى حافضل أكنس وأطبخ طول النهار والليل ؟!

– كفاية إنك تقعدى فى انتظار جوزك .. الانتظار يولد الشوق .. والشوق يولد الحب .. والحب هوه السعادة .. تصورى سعادة الراجل وهو راجع البيت ملهوف وعارف أن مراته مستنياه ، وتصورى سعادة الزوجة لما الساعة تبقى اتنين ويقرب ميعاد عودة زوجها بعد ما استنته ساعتين وتلاتة .. وتصورى شقاء الاتنين لما كل واحد منهم يرجع شقيان من الشغل وعارف أن مافيش حد كان فى انتظاره .. دى تبقى حياة كرب .. حياة آلية .. يبقى مافيش لازمه للجواز ..

– اسمح لى أقولك إنك راجل خيالى ، مش واقعى ..

– واسمحيلى أقولك إنك مش عايزة تتجوزى .. يمكن مش عاجبك ، يمكن حاطه عينك على راجل تانى .. مين عارف !

قالها وكأنه يوجه إليها اتهاما ..

وسكتت أمينة برهة وأرخت أهدابها فوق عينيها ، ثم قالت فى صوت ناعم وقد احتقنت وجنتاها حياء :

– أحلفلك إن مافيش راجل تانى ، وأحلفلك إن عمرى ما أتمنيت راجل أحسن منك .. انت فى نظرى زوج مثالى .. لكن أرجوك تحاول تفهمنى ، أنا قعدت طول عمرى مستنية اليوم اللى أقدر أدخل فيه الجامعة ، وأحلم إنى اشتغلت وبقيت حرة نفسى ، وخايفة لو اتجوزت قبل ما أحقق حلمى إنى أفضل ندمانة طول عمرى وأعكنن عيشة اللى يتجوزنى .. قول علىّ مجنونة .. قول علىّ عنيدة ومغفلة .. لكن ما أقدرش .. أنا كدة .. انت تستحق واحدة أحسن منى ..

وكانت تتكلم وكأنها تبكي .. تبكي نفسها وتبكي ضياعه منها ..

وطأطأ رأسه وقال وكأنه ينعى آماله :

– يعني خلاص .. مافيش فايدة ..

– سيب الأيام تجمعنا تاني .. مين عارف ؟!

قال في صوت محشرج كأنه يخنق قلبه قبل أن تدفعه عواطفه إلى التوسل وإلى إذلال كرامته :

– اللي تشوفيه يا أمينة .. دي حياتك ومستقبلك .. ومهما كانت عوطفي نحوك ، أرجوكي تعتمدي دائما على صداقتي ..

– أنا عارفة .. ومتأكدة إني حاحتاج لصداقتك .. أنت الوحيد اللي بأحس جنبه بأني مطمئنة ..

وقام من على مقعده ..

وقامت ..

ومد لها يده مصافحا ..

ومدت له يدها وهي مطأطئة الرأس ، وكأنها تخفي دموعها ..

ومد كفه ورفع رأسها وقال وهو يحاول أن يبتسم :

– أظن من حقي كصديق إنك تبتسمي لي ..

وابتسمت نصف ابتسامة .. فقال :

– مش كفاية .. أنا استحق ابتسامة أكبر من كده بكثير ..

وابتسمت ابتسامة كبيرة ..

وسحب يده من يدها ، وأدار لها ظهره واتجه إلى الباب ، وهو يمزق شفتيه عن ابتسامة مفتعلة .. وما كاد يخرج حتى

سقطت أمينة فوق مقعدها تبكي وتضرب مسند المقعد بقبضتيها وكأنها تضرب شيطانا يعيش فى صدرها .. شيطانا عنيدا يملى عليها تصرفاتها ولا تستطيع أن ترد له أمرا ..

وتلقت العمة أحمد بعد خروجه ، وهى تنظر إلى عينيه ملهوفة وكأنها تحاول أن تقرأ فيهما قبل أن تسمع من شفتيه ، وصاحت :

– خير يا ابنى ..

وقال وهو يربت على كتفيها وكأنه يصبرها على مصابها :

– خير يا تانت .. أمينة حاتخش الجامعة !!

وصرخت العمة وعيناها تدوران فى محجريهما :

– وأنت ؟!

– أنا أخوها وصديقها . وابنك يا تانت !!

وتحاملت العمة على نفسها إلى أن غادر أحمد البيت ، ثم سقطت مغشيا عليها .

والتفت العائلة حول ربة البيت تحملها إلى فراشها وهى ترتعش وتنتفض بينهم كأن زلزالا دب فى كل جزء من جسدها ، وخرجت أمينة من « أودة الضيوف » جزعة ، وأمسكت بكف عمتها وأخذت تدلكها وهى تصرخ : « نينة .. نينة .. ردى علىّ يا حبيبتى » !

وأبعدها عنها زوج عمتها فى عنف وهو يصرخ :

– ابعدى عنها .. كفاية اللى حصل من تحت راسك .. حرام عليكى حرمت عليك عيشتك !!

ورقدت العمة فى الفراش أياما ، ووقفت أمينة بجانبها

تمرضها .. وكان مرضها إدعاء تحاول به أن ترقق قلب أمينة عليها تعدل عن عنادها ، ولما لم تعدل هبت من فراشها ثائرة تهدد وتتوعد من جديد ، ثم أرسلت تدعو والد أمينة وقالت له وأمينة بينهما ، وكأنها تضع نهاية لقصة :

– شوف يا اخويا .. يا الجوازة تتم يا أنا مش مسئولة عن البنت دى .. لا هى بنتى ولا بنت اخويا .. مش عايزة أعرفها ولا أشوفها بعد كده .. كفاية تمنتاشر سنة باحرق فى دمى علشان أربيها ، وآدى آخرة شقايا ..

ثم بكت فى حرقة ..

وكانت أمينة تعلم مدى تأثر أبيها بدموع شقيقته ، وخافت أن يلين لها كما يلين لها دائما ، فصرخت :

– أنا مش حاتجوز يا بابا .. ما يهنش عليك تجوزنى غصب عنى .. انت وعدتنى بالجامعة من يوم ما دخلت السنية .. ولازم تنفذ وعدك !

وسكت الأب حائرا ، ولم يكن يعلم إلا أن هناك رجلا جاء لزواج ابنته وقد قابل هذا الرجل مرة عندما حتمت عليه التقاليد أن يقابله ، وأعجب يومها بشخصيته ثم ترك إتمام اجراءات الزواج لأخته وزوجها ..

لم يكن يعلم شيئا من كل ما حدث ، ولم يتعود أن يطلعه أحد على شىء .. لقد عاش طويلا فى دنياه السعيدة لا يزعجه فيها أحد ، ولا يزعج بها أحدا ، ولكنه الآن وفى هذه اللحظة يحس أنه خرج فجأة من دنياه ، ويحس بالحيرة والقلق والخوف ، كأنه آدم وقد طرد عاريا من الجنة وواجهته دنيا

مخيفة لا يعرف مسالكها .. لقد أحس كأب بمسئوليته تقع مرة واحدة على كتفيه كجلمود صخر حطه السيل من عل ، فكاد يئن من ثقلها ..

ونظر إلى دموع شقيقته ، ثم إلى وجه ابنته وقد انتصبت أمامه عنيدة صلبة كأنها مارس إله الحرب تقمص جسد فتاة جميلة .. وفكر .. فكر طويلا .. ثم قال فى هدوء :

– ما دام مش عايزه تتجوز ، نجوزها ليه .. وماله لما تخش الجامعة ؟!

وجاء صوت زوج شقيقته كأنه السيف الباتر :

– إذا دخلت الجامعة تخرج من بيتى .. إحنا عشنا وكبرنا وبنات العيلة كلهم بيتجوزوا ، البنت اللى تخش الجامعة ما تبقاش بنتنا ..

وأحس الأب أن ابنته أهينت ، وأحس بالتالى أنه أهين وكاد يثور ، ولكنه كان أرقّ من الثورة ، وأطيب من أن يحتد .. كان يلتمس الأعذار لكل إنسان ولكل شىء ، وكان يرى الخير حتى فى وجه الشر ، وقد التمس لزوج شقيقته عذرا ورأى الخير فيما يقول ، ثم نطق كأنه وجد الحل الأخير :

– وماله .. تقعد معايا فى بيتى .. أنا كمان كبرت وبقيت محتاج لها !..

وألقت أمينة بنفسها على صدر أبيها وتعلقت بعنقه تقبله وتمسح وجهها فى وجهه ..

ونقلت العمة عينيها بين زوجها وشقيقها ، ثم شهقت بالبكاء .



٦

وانتقلت أمينة إلى بيت أبيها فى شارع « البورصة القديمة » الذى يصل بين شارعى سليمان باشا وقصر النيل ..

شقة صغيرة فى إحدى هذه العمارات الكبيرة القديمة التى لا تزال تحاول أن تقف رافعة الرأس أمام العمارات الجديدة ..

وكانت الشقة مكونة من حجرتين وصالة ، كان الأب يستعمل إحداهما لنومه والثانية لاستقبال ضيوفه ، ويستعمل

الصالة كحجرة للطعام .

وأصبحت حجرة استقبال الضيوف حجرة لأمينة ولم تشتر فيها شيئا جديدا إنما حملت معها من بيت عمتها سريرها ودولاب ملابسها ، ومكتبا صغيرا علقت فوقه رفا رصت عليه كتبها ..

وخيل لها أن السعادة كلها قد تجمعت بين يديها ، وهدأت في صدرها هذه الأحاسيس العنيفة التى كانت تعصف بها منذ ولدت ومنذ عاشت بين عمتها وزوج عمتها ..

كانت سعيدة وقد أصبحت « ست بيت » فوالدها سلم لها أمره وخضع لآرائها وللنظام الذى وضعته للبيت ، وسلمها « المصروف » تفعل به ما تشاء ، وعم مجاهد الخادم العجوز الذى عاش مع أبيها منذ كان شابا ، يطيعها فرحا بها ويحرص دائما على أن يقنعها بأنها صاحبة الأمر والنهى ..

وكانت سعيدة وهى تخرج من البيت لتجد نفسها بين حوانيت شارع سليمان باشا وشارع قصر النيل .. وكانت سعيدة وهى تصعد الشقة وتنزل منها بالمصعد الكهربائى .. وكانت سعيدة وهى ترى وجوه جيرانها وكلهم من الأجانب .. وخيل إليها أنها انتقلت من مصر كلها لتعيش فى باريس ، ولم تكن تتصور فى باريس شيئا أكثر مما يحيط بها ..

وقد أثرت فيها هذه الدنيا الجديدة التى انتقلت إليها وبدأت تتطبع بها ، حتى إنها اخذت تشترى للبيت « عيش فينو » بدلا من الخبز البلدى المعتاد الذى نشأت تأكله ولا تعرف غيره .

وأصبحت حرة .. الحرية كلها .. فإن أحدا لا يعارضها ،

واحدا لا يسألها ، وليس لأحد حق عليها ، فقد تنازل لها أبوها عن كل حقوقه ، بل إنه كان يبدو أمامها كالطفل الكبير يكاد لفرط طيبته وحبه لها يخشاها .. ولكنها ظلت تحس بمسئولية هذه الحرية ، وظلت تحس إنها مسئولة عن تصرفاتها ومسئولة عن أخطائها ، فلم تكن تسيء التصرف ولم تكن تخطيء ، وظلت تعتبر نفسها مسئولة أمام والدها حتى ولو لم يحاسبها ، وظلت تحرص على الثقة الكبيرة العمياء التى وضعها فيها ، حتى ولو لم يراجع نفسه فى هذه الثقة ..

ولكن مع الأيام بدأ الملل يزحف إلى حياتها ..

كانت تخرج كل يوم لتمر بين الحوانيت وتشترى بعض لوازم البيت ، وكانت تذهب مع أبيها إلى السينما بين ليلة وأخرى ، وكانت تقرأ كثيرا ، وكانت تقف طويلا فى نافذتها ترقب باعة الصحف وهم ملتفون حول مكتب ماهر أفندى فراج متعهد التوزيع ، أو ترقب الداخلين والخارجين إلى فرع البنك الأهلى ، وكانت تزور عمتها ، وهى زيارات بدأت متتابعة ثم بدأت تقل حتى كادت تبطل ..

ولم يكن كل ذلك يكفى لملء حياتها ، فكانت تجلس إلى عم مجاهد تسأله عن أخبار الجيران ، فيروى لها أخبار مدام ستوبولو وبناتها ، وأخبار الخواجة « الإنجليزى » الذى يسكن الدور الخامس ، وأخبار مسيو برنيه ومدموازيل صوفى .. وبقية الأجانب الذين يسكنون العمارة ، ولكنه لم يكن يقول شيئا عن أخبار الشقة الملاصقة ..

وقد لاحظت أن هذه الشقة الملاصقة لشقتها ساكتة أبدا ،

لا تفـتح فيـها نافـذة ، ولا يبدو فـيهـا أحد ، ولا يسـمع فيـها صوت.. وكـانت تلحظ أن بابها يفـتح فى فتـرات متبـاعدة ثم يغلق بعـد بضع سـاعات ، ولا يفـتح مـرة ثانية إلا بعـد أيام ، ليغلق مرة ثانية بعـد بضع ساعات .وكانت تتخيل شيـئا غريبا مريبا يدور فى هذه الشقة .. وتجرأت مرة وسألت عم مجاهد ، فارتبك وتلعثم ثم قال وهو يدير عينيه عنها حتى لا ترى فيهما الكذب :

– والله يا ست هانم ما أنا عارف .. يظهر أن صاحبها عايش فى بلدهم ومابيجيش إلا كل حين وحين ..

وعرفـت أنه يكذب ، ولم تكن صغـيرة لتـخمن مـا يمكن أن تكون عليه هذه الشقة ..

لقد سبق أن سمعت من صديقتها فورتينيه أن بعض الشبان الأثرياء يستـأجرون شققـا خاصة يصحـبون إليها الفـتيات .. ولا بد أن تكون هذه الشـقة واحدة من هذه الشـقق .. وصدق ظنها عندمـا عادت يوما من الخارج فى وقت الظهـر ، فوجدت شابا أبيض اللون أشقر الشعـر منهك الوجه يفتح باب الشقة ، وبجانبه فـتاة فى مثل سنها يبدو عليها الارتباك والـلهفة إلى الدخول ، وكأنها تحاول أن تختبئ من شبح وهمى يطاردها .

ودخلت إلى حـجرتهـا وقـد انحصـر فكرها كله فى الفـتى والفتاة ومـا يمكن أن يحدث بينهما داخل الشقة .. وخـيل إليها أن عينيها تثقبان الجدار لتراهما سويا ..

وطافت بخيالها صورة الرجل الذى حـاول أن يعتدى عليها وهى فى العاشرة من عمرها وعاودتـها ذكرى أنفاسه الكريهة عندما دس شفتيه بين شفتيها ..

ثم طافت بخيالها صورة صديقتها فورتينيه عندما رأتها ملتصقة بفتاها حتى تكاد تختفى فى ثيابه بينما غابت شفتاها بين شفتيه ..

ثم قفزت إلى رأسها صورة أحمد الذى جاء يخطبها ، وتلاحقت بها الصور حتى تخيلت نفسها معه فى ليلة الزفاف .

ثم اختفت صورة أحمد من رأسها ، وقفزت مكانها صورة عباس .. ماذا يمكن أن يحدث لو انفردا سويا ؟! هل هو كبقية الشبان ؟ وهل سيحاول تقبيلها ؟ وهل ستختفى فى ثيابه كما كانت فورتينيه تختفى فى ثياب صديقها ؟

واستقر خيالها برهة وكأنها ارتاحت لاختفائها فى ثياب عباس !.

وفجأة ثارت على خيالها وطردته من رأسها فى عنف وكأنها تقتل صرصارا يقززها وهو يزحف فوق قدمها .. وبدأت تتعجب لهؤلاء الفتيات اللاتى يسلمن أنفسهن للفتيان ويتحملن قبلاتهم وأنفاسهم وأذرعهم المحمومة وهى تلتف حول خصورهن ، وكفوفهم المجنونة وهى تنساب فوق أجسادهن .. ماذا يجدن فى كل ذلك ، وأى حظ لهن فيه ؟!

ولكن الصرصار عاد يتحرك من جديد ، وعادت أبخرة الخيال تملأ رأسها وبدأت تتعجب من نفسها .. لم لا تكون كبقية الفتيات ، لم لا يكون حظها من الفتيات كحظهن .. إنها الآن فى الثامنة عشرة من عمرها ، وهى رغم ذلك لا تتحمل أن يقبلها شاب ، أو يضمها إلى صدره .. هل هى باردة الإحساس ميتة العاطفة كما سمعتهم مرة يصفونها ؟!

وصحبتها هذه الخيالات أياما طويلة .. وظلت ترهف السمع كلما فتح باب الشقة الملاصقة ، وتظل مرهفة السمع تائهة وراء خيالهـا إلى أن تسمع الباب يغلق بعد بضع ساعات .. بل إنها استيقظت مرة من نومهـا بعد منتصف الليل عندما سمعت باب الشقة الملاصقة يفتح ، وكأن الذى أدار المفتاح فى قفل الباب قد فتح جفنيها .. وظلت بعد ذلك أرقة يعذبها خيالها وتتعذب معها وسادتها حتى مسح الصباح عن جسدها العذاب .

وبدأت أعصابها تضعف ، وبدأت سحب الملل والضيق تتجمع حولها ، وبدأت تثور على وحدتها ، وبدأت تتمنى لو عادت إلى عمتها وزوجها لتجد فى تحديهما شيئا أخف من هذا الفراغ الذى يحيط بها ، وأرحم من هذا الخيال الذى يعذبها ، وبدأت تعانى صعوبة شاقة لاستجماع إرادتها حتى لا تسىء التصرف ، وحتى لا تخطىء ، وحتى لا تخون الثقة التى وضعها فيها أبوها ، وحتى تصون حريتها من أن تقودها إلى شىء لا تريده ..

وانقذها من بعض هذا العذاب أن انقضت الأجازة الصيفية ، ودخلت الجامعة .

ولم تكن الجامعة المصرية !!

دخلت أمينة الجامعة الأمريكية ..

ولا تدرى لماذا اختارت هذه الجامعة .. ربما لأنها كرهت أن تضمها مع فتيان حى العباسية جامعة واحدة ، وهم جميعا قد التحقوا بالجامعة المصرية .. وربما لأنها لم تطمع فى أن تكون موظفة بالحكومة ولم ترد أن تؤهل نفسها لمهنة معينة بالذات ،

كمحامية أو طبيبة أو مدرسة ، وإنما أرادت علما يؤهلها للحياة نفسها فى جميع نواحيها .. وربما لأنها كانت تطلب مزيدا من الحرية ، وقد سمعت من أصدقائها فى حى الظاهر أن الجامعة الأمريكية تصون الحرية الشخصية ، تصونها من التقاليد الشرقية العتيقة ، وتصونها من التعصب الدينى ، وتصونها من ألسنة الناس ومن الإشاعات الكاذبة التى أحاطت بكل تصرفاتها وأزعجت أيام عمرها ..

ولم يعارض أبوها فى التحاقها بالجامعة الأمريكية ، ولم يكلف نفسه أن يبحث عن الفارق بين هذه الجامعة والجامعة المصرية ، وربما لو عرف أن الحكومة المصرية لا تعترف بشهادات الجامعة الأمريكية لحاول أن يعارض ، فلم يكن يتصور أن تلتحق ابنته بالجامعة إلا لتكون موظفة فى الحكومة .. ولكنه لم يكن يعرف ، وكل ما دار بخلده أن أمينة قد اختارت هذه الجامعة لأنها أقرب إلى البيت بحيث تستطيع أن تذهب إليها وتعود سيرا على قدميها ..

وخطت أمينة أولى خطواتها داخل الجامعة مرتبكة حائرة كأنها تتلقى أول درس فى السباحة ، تخاف الغرق رغم أنها واثقة من أنها لن تغرق ، فالماء ضحل وهى واقفة فيه على قدميها ..

وحاولت أن تبدو كأنها طبيعية لا تخاف الغرق ، وكأنها تحررت من التقاليد الشرقية التى لا تزال تسدل على وجهها برقعا من الحياء كلما وجدت نفسها وسط شبان غرباء يلتفون حولها بعيونهم .. يخيل إليها أنهم ينظرون إلى شفتيها

فتـرتعش الشفتـان ، ويخيل إليهـا أنهم ينظرون إلى وجنتيـها فتـحتـقن الوجنتان ، ويخـيل إليهـا أنهم ينظرون إلى قوامـها فيرتبك القوام ويتمايل فى رفق وكأنه يتأوه من ثقل النظرات ..

وحـاولت أن تبدو طبـيـعيـة وأن تضع عيـنيهـا فى عيـون زملائهـا الطلبة ، ولكنهـا لم تستطع وظلت تنظر إلـيهم بطرف عينيها وتغـافلهم بنظراتها .. ثم حاولت أن تبدو طبيعية عندما وجدت نفسها فى حـجرة الدراسة تجلس وبجوارها شاب يكاد كتفـه يلامس كتفهـا ، وتكاد ساقه ـ لو دفعهـا قليلا ـ تلامس ساقـها . ولكنهـا لم تستطع أيضاً ، وردت تحـيتـه فى صوت خافت كأنها جـارية من جوارى الحريم تحيى السلطان ، ثم لم تنظر إليـــه بعـد ذلك ولم تحـاول أن تفـتح لـه بابا من أبواب الحديث ..

لقد كانت فى هذا اليـوم الأول من أيام الجامعة ، شيـئا آخر غير مـا كانت تعرفه عن نفســها ، وغير ما كان يعـتقده الناس فيها .

لم تكن جريئـة ولا حرة ولا عنيـدة ، كانت فى هذا الوسط الأجنبى الذى دفعت نفسها إليـه أشبه بروح من الشرق القديم تطوف بمدينة نيـويورك .. مذهولة خائفـة متـرددة .. وأحست بعـد بضع ساعـات أنها تكاد تخـتنق .. تختنق من هذا الـثوب الذى قضت أياما تعده لهذا اليوم ، وتخـتنق من عقصة شعرها الذى بدأت تعقصه منذ الساعة الخامسة صباحا وربما وضعت فيه من الدبابيس و « البنسات » والأمشاط الصغيرة ما ثقل به راسـها حتى أصيـبت بالصداع .. وتختنق من هذا التكلف الذى

فرضته على جميع حركاتها حتى بدت كدمية تتحرك بزمبرك.. كانت تريد أن ترتاح من كل ذلك وأن تبدو طبيعية كما كانت فى مدرسة السنية ، تمرح وتضحك وتتكلم وتأكل الساندويتش ..

وكانت ترى من حولها زميلاتها وهن يخالطن الطلبة ، أو يعقدن حلقات الحديث - وهو حديث يدور دائما باللغة الانكليزية وترى بعضهن مستلقيات على حشيش الحديقة ، وبجانب كل منهن ، زميل يقلب معها كتابا أو يروى لها قصة ، والجميع فى فرح واستبشار بافتتاح الجامعة .. وقد حاولت أن تشاركهن مرحهن واستبشارهن ولكنها جبنت وغطت جبنها بنوع من التعالى والكبر المفتعل .

ولم يساعدها أحد على التخلص من شعور الغربة الذى يكاد يخنقها ، فزميلاتها كلهن من خريجات كلية البنات الأمريكية وهى الوحيدة خريجة مدرسة السنية أو أى مدرسة مصرية حكومية .. وكن ينظرن إليها كشىء غريب بينهن ، وربما تعمدن تجاهلها لما لحنه من جمالها ولما تنبأن به من خطورة هذا الجمال عليهن .. أما زملاؤها الطلبة الذكور الجدد فكانوا مثلها يشعرون بالغربة ، ويشعرون بالهيبة ، ويترددون كثيرا قبل أن يفتح الله على الواحد منهم بكلمة يوجهها إلى طالبة من زميلاته .

وأخرجها من ضيقها صوت يصيح من ورائها باللغة الانجليزية وهى تتسكع فى فناء الجامعة :

– أنت يا .. انتظرى !..

ولم ترد ، ولم تنتظر ، ولم تتلفت إلى مصدر الصوت ..

وأحست بكف تلامس كتفها ، والصوت يقول بلهجة آمرة :

– إنى اناديكى انت .. قلت لك انتظرى !!

والتفتت إليه .. إنه طالب فى حوالى العشرين من عمره ، يبدو عليه أنه أجنبى ، يرتدى سروالا أزرق وقميصا « أمريكانى » منقوشا بألوان فاقعة منفرة .. ولم يمهلها لتتكلم، إنما عاد يسألها بلهجته الآمرة :

– ما اسمك ؟

ورفعت حاجبيها دهشة ، وقالت بالانجليزية وهى تبتسم لجرأته :

– أظن يجب أن أعرف اسمك أولا ..

قال وهو لا يزال يحتفظ باللهجة الآمرة وكأنه يقرأ منشورا :

– يجب أن تعرفى أن تقاليد الجامعة الأمريكية تقضى بأن يخضع جميع الطلبة الجدد لأوامر جميع الطلبة القدماء خلال الأسابيع الأولى من بدء الدراسة .

وقالت وقد اتسعت ابتسامتها :

– أعرف ذلك ..

قال وكأنه يعايرها :

– وأنت طالبة جديدة ..

ثم استطرد متباهيا :

– وأنا طالب قديم !!

قالت وهى تغالب الضحك :

– تشرفنا ..

قال يصدر أمرا :

– احملى لى هذه الكتب !

وقذف بكتبه إلى صدرها فالتقطتها بذراعيها ، ثم أدار لها ظهره وانصرف عنها ، وضحكتها تتراقص صامتة بين شفتيها .

وعاد إليها بعد قليل يصدر أمرا جديدا :

– أعيدى إلى هذه الكتب ..

وأعادت له كتبه ، وقبل أن ينصرف توقف قليلا ، وخفت لهجة الأمر فى صوته ، وسألها :

– إنك لم تقولى لى اسمك ..

– أمينة ..

وفكر قليلا ، ثم صاح وكأنه اكتشف شيئا :

– سأناديك « مينو » .. إن اسمى فرناند وإذا اعتبرت نفسك صديقة لى تستطيعين أن تناديني « فرى » !

– إنى سعيدة بمعرفتك يا مستر فرى ..

قال وهو يهز كتفيه استخفافا :

– لا تسعدى كثيرا بمعرفتى ! وعلى فكرة أن لغتك الانجليزية ثقيلة .. إنك تتكلمين كإحدى طالبات اكسفورد .. أرجو أن تتحسن لغتك فيما بعد !!

وتركها وهى تضحك ملء شدقيها ..

وعادت أمينة إلى البيت بعد انتهاء اليوم الدراسى وقد خف شعورها بالغربة والوحدة داخل الجامعة .. وقضت الساعات

تروى لأبيها قصة يومها وتصف له العميد والأساتذة وزملاءها الطلبة والطالبات ، وانشغلت بعد ذلك فى مراجعة المواد التى تدرسها خلال العام لتعد نفسها لنيل شهادة الآداب.. وكانت متلهفة لتدرس كل شىء .. الفلسفة ، والأدب ، والتاريخ .. بل إنها فكرت فى أن تدرس الصحافة ..

ولم تسمع فى هذه الليلة صوت باب الشقة الملاصقة وهو يفتح ويغلق ، لا لأنه لم يفتح ولم يغلق ، ولكن لأن حواسها كلها كانت منصرفة إلى الجامعة وما ينتظرها فيها ، وعندما نامت استغرقت فى النوم حتى لم يستطع المفتاح الذى يدور فى باب الشقة الملاصقة أن يفتح جفنيها !!

وعادت كل صباح إلى الجامعة وتكاثرت أوامر الطلبة القدماء عليها .. هذا يأمرها بأن تحضر له فنجانا من الشاى ، وذاك يأمرها بأن تسير على قدم واحدة مسافة عشرة أمتار .. وكانت تتقبل هذه الأوامر بروح جامعية سمحة فتطيعها فرحة بها ، وقد لاحظت أن هذه الأوامر تنصب عليها أكثر مما تنصب على بقية زميلاتها الجدد ، فتباهت بها عليهن ، واعتبرتها وسيلة من وسائل الإعجاب بها .. وقد أعجب بها فعلا أغلبية الطلبة وأخذوا يتقربون إليها إما بأوامرهم أو بمحاولة مساعدتها على التعرف بالجامعة ..

إلى أن كان يوم « التدشين » بعد انتهاء الأسبوع الرابع من بدء الدراسة .. وهو يوم تحتفل به الجامعة احتفالا كبيرا ..

ووقف العميد وسط الطلبة الجدد يلقى بينهم خطابا ويقول لهم بلهجة آسفة وكأنه يصبرهم على مصابهم :

– إن ما سيحدث لكم الآن قد حدث لجميع الطلبة قبلكم !.

ثم اصطف هؤلاء الطلبة أمام باب بدروم الجامعة وقد حرص كل منهم على أن يرتدى ثيابا قد استغنى عنها .. وبدأوا يدخلون واحدا إثر واحد ..

ودخلت أمينة وهى تبتسم لما تنتظره من خبايا مثيرة .. ووجدت نفسها بعد أول خطوة داخل البدروم فى ظلام دامس، ثم صرخت عندما رأت هيكلا عظميا مخيفا يطل عليها ، وسارت خطوتين فإذا « بدش » من الماء البارد ينصب عليها ، وخطت مرة أخرى فإذا بها تحس أنها تسير فوق أشياء تشبه الثعابين الرفيعة اللزجة أو المكرونة « الاسباجتى » المسلوقة ، ولم تستطع أن تحتفظ بتوازنها فانزلقت قدمها وسقطت على الأرض وهى تصرخ ، وإذا بصوت يصرخ فيها : « انهضى وأمسكى بالعامود حتى لا تسقطى فى البئر » !. ونهضت وهى تئن ومدت ذراعها فاصطدمت بعامود أمسكت به فإذا به مكهرب ، وتسرى الكهرباء فى بدنها فتصرخ من جديد ، وإذا بصوت يصيح وكأنه يخاطب زميلا له : « اضربها بالشلوت » فتفزع من فكرة ضربها بالشلوت ، هذا الشلوت الوهمى فتسقط مرة ثانية ، ثم تقوم وتجد نفسها مضطرة لأن تزحف على بطنها تحت مائدة طويلة واطئة جدا .. وهكذا إلى أن خرجت إلى النور فرأت زملاءها وزميلاتها الذين سبقوها فى البدروم وقد لطخت وجوههم بالحبر واتسخت ثيابهم بمختلف الألوان وانتثرت شعور البنات .. فضحكت وأغرقت فى الضحك ، ونظر إليها الجميع فضحكوا بدورهم وأغرقوا فى الضحك .

وكان هذا النوع من « التدشين » يتخذ رمزا على أن الطالب الجديد قد اجتاز كل الصعاب وتحمل أنواع المشقة والعذاب ليستحق بعد ذلك شرف الانتساب إلى الجامعة ، وكان فى حد ذاته وسيلة لتآلف الطلبة ورفع الكلفة بينهم وبث الروح الجامعية فيهم ..

وقد انتهت حفلات التدشين واستقرت الدراسة فى الجامعة، وبدأت أمينة تألف الدنيا الجديدة التى انتقلت إليها وتبرز فيها بشخصيتها كما تعودت أن تبرز فى كل دنيا تخطو إليها .

وبدأت تتطبع بالطابع الأمريكى ، فأصبحت تتكلم الانجليزية فى لهجة أمريكية أشبه بصوت الأوز أو صوت « دونالد دك » الشخصية الكاريكاتورية التى ابتكرها والت ديزنى فى رسومه المتحركة .. وأصبحت تنتقى ثيابها بذوق أمريكى يطغى فيه الجفاف على الأناقة ، وأصبحت تعقص شعرها أيضا على الطريقة الأمريكية التى تحاول دائما أن تجمع بين رأس المرأة ورأس الحيوان فى دائرة واحدة .. حتى ذوقها فى الموسيقى بدأ يتطور فلم تعد تردد أغانى أم كلثوم ، ولم تعد تغنى « يا دنيا يا غرامى » لعبد الوهاب ، ولم تعد تميل إلى سماع التانجو والفالس ولم تعد تفضل أنغام الكمان والبيانو والفيولنسل ، بل أصبحت لا تلتقط بأذنيها إلا ضجيج « السوينج » و « البوجى ووجى » و « الشارلستون » فإذا أرادت أن ترتاح من الضجيج استمعت إلى الحان «سلوفوكس» وأصبح النغم المفضل لديها هو نغم « السكسفون » : الآلة الموسيقية التى تخرج أصواتا أشبه بصوت شخير النائم !

وكانت أمينة أجرأ من بقية زميلاتها فى اندفاعها نحو التطبع بالشخصية الامريكية ، وأجرأ منهن فى اختلاطها بالطلبة وفى قبولها الدعوات التى توجه من زملائها إلى حفلات خاصة يقيمها كل منهم فى بيته .. كل ما كانت تحرص عليه ألا تقبل دعوة تقتصر عليها وعلى الداعى ، وكانت تصمم دائما على أن تكون بين كثير من الفتيان والفتيات .. ولكن هذا التصميم لم يدم طويلا فقد وجدت نفسها بين عشرة من الطلبة يبثونها الغرام ، وقد كانت سمرتها الساخنة ووجنتاها الملتهبتان دائما ، وشفتاها المكتنزتان كحبات الفراولة ، أقوى من التقاليد الجامعية ، وأقوى من روح الزمالة ، وكان من المستحيل ازاء هذا الجمال المثير وازاء هذه الأنوثة اللافحة أن يستطيع الطلبة اعتبارها مجرد زميلة ، وأن يكون إعجابهم بها مجرد إعجاب بزمالتها .. لقد كانوا يحترمون الجامعة ، ويحترمونها كطالبة جامعية ، ولكن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها .. فاندفعوا نحوها وفى ثياب كل منهم رجل ، وفى قلب كل منهم لهفة ..

واشتد التنافس من حولها ، وكثرت مشادات الطلبة بعضهم مع بعضهم .. وقد ظنت أنها تستطيع أن تفخر بهذا التنافس وأن تتباهى به أمام زميلاتها ، ولكنها وجدت نفسها فجأة فى دوامة من المضايقات لا تستطيع أن تخرج منها وتكاد أن تغرق فيها ..

ثم حدث أن تحمس طالب فلسطينى من المعجبين بها فرفع مديته فى وجه أحد منافسيه ، واهتزت الجامعة لهذا الحادث ، وفصل الطالب الفلسطينى ..

ولم يرحم الطلبة أمينة فقد انزلوا بها نوعا فريدا من العقاب انتقاما لزميلهم ، فأخذوا يشيحون عنها بنظراتهم ، ويتجاهلونها فى دعواتهم ، ويرفعون اسمها من الفرق الرياضية التى ينظمونها .. حتى زميلاتها الطالبات بدأن يدرن لها ظهورهن ، ويتفرقن عنها كلما سعت إليهن .

وكادت تجن ..

ماذا جنت ؟ وما ذنبها إذا تهور طالب وطعن زميله من أجلها ؟ إن احدا لم يأخذ عليها تصرفا من تصرفاتها ؟ وأحدا لا يستطيع أن يتهمها بأنها أرادت شيئا مما حدث أو تعمدت إحداثه ؟ لقد أرادتهم جميعا زملاء ولم يأخذ منها أحد أكثر مما يأخذ الزميل .. فأى ذنب جنته ؟

واشتدت ثورتها وعنادها حتى كادت تستقيل من الجامعة .. ولكنها لم تستقل ، فهى لم تقض العمر كله سعيا إلى الجامعة لتخرج منها بعد بضعة شهور ..

وقررت أن تعامل زملاءها وزميلاتها بمثل ما يعاملونها به . فتجاهلتهم كما يتجاهلونها ، وتعالت عليهم أضعاف ما يتعالون عليها ، وأشاحت عنهم قبل أن يشيحوا عنها ..

وكان كل ذلك على حساب أعصابها وسعادتها ، وشهدها بيتها تثور لأتفه الأسباب ، وتصرخ فى وجه عم مجاهد ـ خادم أبيها العجوز ـ ولم تكن تصرخ فى وجهه أبدا ، وتزفر فى وجه أبيها وكانت دائما أرق عليه وأرحم به من الزفرات ..

وكان من المستحيل أن يدوم هذا الحال طويلا .. فبدأت تبحث بين الطلبة عن أحد تستثنيه من الجميع وتتخذه صديقا ،

كما اتخذت كل زميلة لها صديقا من بين الطلبة يزاملها داخل الجامعة ، ويصاحبها خارج الجامعة ، ويعترف الجميع بصداقتهما ، حتى لا تدعى إلاّ إذا دعى معها ، ولا يحسب لها حساب إلا إذا حسب حسابه معها .. واعتقدت أنها لو اتخذت لها صديقا واحدا فربما أدى ذلك إلى أن ترتاح من المضايقات التى يسببها لها تزاحم المتنافسين حولها ..

واختارت واحدا ..

ولم يكن أحد العشرة المتنافسين .. ولكنه كان شابا مصريا خجولا رقيقا مهذبا ، اكتفى منذ بدأ العام الدراسى بالنظر إليها من بعيد ، ولم يحاول أن يسعى إليها ، ولم تجمعهما من قبل سوى مناسبات جامعية عابرة اكتفيا فيها بتبادل كلمة أو كلمتين ، ولم يشترك فى المقاطعة التى فرضها عليها الطلبة والطالبات عقب حادث فصل الطالب الفلسطينى ، إنما كان دائما يستقبلها بابتسامة مرحبة ويحييها باحترام كبير ، وينظر إليها فى حنو وكأنه يشجعها على احتمال العقاب الذى أنزله بها الزملاء ..

ولم تجد صعوبة فى كسب صداقته ، فقد كان وكأنه عاش العمر كله فى انتظار هذه الصداقة ، فأقبل عليها مثلما اقبلت عليه ..

وكان اسمه جلال ..

وكان جلال محبوبا من الطلبة لرقته وحيائه ، ولأنه كان يحب الجميع ويضحك للجميع ، ولأنه ـ وهو سبب هام ـ كان يملك سيارة يضعها دائما تحت تصرف زملائه وزميلاته

وينقلهم بهـا حيثـما يشاءون ، وكـان ثريا يدفع معظم نفـقات الحـفلات التى يقـيـمهـا الطلبـة داخل الجامـعـة ، وينفق على الرحلات التى يخـرجون إليها ، ويقـيم فى بيته حفـلات رائعة يرقصون فيها على أنغام الجرامفون ..

ووجد الطلبـة بعد أن توطدت صـداقة أميـنة وجلال ، أنهم مضطرون إلى الصـفح عنها ، ما داموا حريصـين على جلال ، وسيارة جلال ، وحفلات جلال ..

وقد صفحوا عنها ..

كما أن المتنافسين حولها بدأوا يحـترمون صداقتها لجلال ، واستقـبلوا هذه الصداقة بروح رياضيـة سمحة تعـترف بمبدأ « النصر للأفـضل » ، ثم انفضوا كل منهم يبحث عن صـديقة لنفسه ..

وبدأت الزوابع والأعاصـير تهدأ حول أمينـة ، وأخذت تعود يوما بعـد يوم إلى الحياة الجامـعية الطبـيعية ، وإلى نشـاطها الجـامعى .. عـادت إلى فـرقـة « الباسكت بـول » وإلى فرقـة التمثـيل .. وأحست أنها اكتسبت قـوة كبيرة بصداقتـها لجلال فأصـبحت هى صـاحبـة السيـارة ، وأصبـحت هى التى تنظم الحـفلات وتدعـو إليـها وأصـبحت هى التـى تبتكر الرحـلات الخلوية وتعدها . وأصبحت قلوب الطلبـة والطالبات تصفو لها صفاءها لجلال ..

ولم تكن صداقـتها لجلال تزيد عن مـجرد التزامل .. فهـما مـعا منذ الصـبـاح ، يجلسان بـجانب بعـضهـمـا فى حجـرة الدراسة. وهما معا فى فنـاء الجـامعة يقرآن سـويا فى كتـاب

أو يتحـادثان ، وهما معا فى المـطعم يتناولان الغداء ، وهو فى انتظارها عندما تلعب « الباسكت بول » وهى فى انتظاره عندما يلعب « الفولى بـول » ، ثم ينزويان فى القاعة الشـرقية ليـعدا دروسهما ، ثـم يوصلها إلى بيتها بسيـارته ، وقد يذهبان إلى السينما ، أو إلى دعـوة أحد الأصدقاء أو يقيـمان حفلة فى بيت جلال ..

كان هذا هو كل شىء ..

ولم يكن جلال يطلب شيئا أكثر ، ربما لحيائه ورقته ، وربما لأنه كان يخشى على صداقتهما من أن يفسدها ما هو أكثر ..

وكان يجب أن تكون أمينة سعيـدة ، فلم يعد ينقصـها شىء من أسباب السعادة ..

ولكنها لم تكن ..

لقد بدأ خيالها يؤرقها من جديد ، وبدأت ترهف السمع كلما فـتح باب الشقـة الملاصقـة أو أغلق ، وبدأت ترسم فى ذهنهـا صـورا لما يمكن أن يحـدث فـى هذه الشـقـة ، وبدأت تتـذكـر صديقتـها فورتينيه عندما رأتهـا ملتصقة بصديقـها حتى تكاد تختفى فى ثيابه بينما غابت شفـتاها فى شفتيه ، وبدأت تتذكر من جـديد هذا الرجل الذى حـاول الاعـتـداء عليـهـا وهى فى العـاشـرة من عمـرها ، وهذا الشـاب الذى قـبلهـا هذه القـبلة التافهة ، وبدأت تتذكر عباس عندما تحتقن أذناه ، وأحمد الذى جاءها خـاطبا . وبدأت وسادتها تتـعذب معهـا ، وبدأ سريرها يئن من الجـسـد الذى يتـعذب فـوقـه ويتلوى فى عنف كـأنه يصرخ تحت ضربات سياط ..

ولم يكن انهماكها فى استيعاب دروسها ولا صداقتها لجلال ، كافيين ليلهياها عن خيالها ، بل أنها بدأت تشرك جلال فى هذا الخيال !!

لماذا لم يحاول هذا الشاب شيئا ؟.

هل هى باردة الاحساس كما سمعتهم يقولون ، حتى طغت برودتها عليه ؟

أم أنه لا يحبها ، فلا يريد منها شيئا ؟

وإن كان يحبها .. هل كان يقبلها ، وهل يحتضنها بين ذراعيه ؟

كيف لا يحبها ؟!

يجب أن يحبها .. ويجب أن تتأكد من هذا الحب ؟!

ووجدت في هذا المنطق المفتعل الكاذب الذى انساقت إليه ، ما يرضى خيالها .. وقد ظلت تحت تأثير هذا الخيال حتى اليوم التالى .. وربما لحظ جلال معنى جديدا فى نظرات عينيها ، وربما لحظ رنة جديدة فى صوتها ، وربما لحظ كتفها يلامس كتفه أكثر من مرة ، وكفها يصطدم بكفه أكثر من مرة .. ولكنه ظل دائما تحت تأثير حيائه ورقته ..

إلى أن كان المساء ، وكانا مدعوين إلى حفلة راقصة فى بيت أحد الزملاء ..

وتعمدت أمينة ألا ترقص « السوينج » أو « البوجى ووجى » ثم قامت ترقص معه « رومبا » بطيئة هادئة يسرى لحنها ناعما حنونا كأنه خفقات قلب ، ويرتفع معه صوت امرأة تغنى وكأنها تتأوه قائلة :

« إذا كنت تحبني .. قل لي » ..

« وإن لم تكن يا حبيبي .. اعترف .. »

« ولكن لا تقل لي .. ربما ؟! »

وانساقت أمينة بخيالها مع اللحن الهادىء الناعم ، وكانت قد تعودت أن تتكلم وتضحك عندما ترقص ، وأن تصرف اهتمامها كله إلى خطوات قدميها ؛ ولكنها في هذه الليلة لم تتكلم ولم تضحك ولم تحس بخطوات قدميها ، إنما ألقت بجسدها فوق جسده وتركت خصلات شعرها تدغدغ وجهه وتملأ أنفه بعبير أنوثتها ، ثم أحست بوجنته تلامس وجنتها وقد دبت فيها النار ، وأحست بأنفاسه تتهدج ثم تتسلل إلى أذنها .. ساخنة لافحة كأنه ينفخ فيها اللهب ، وأحست بساقيه ترتبكان حتى لم تعودا تصاحبان اللحن ، وكادا يتوقفان عن الرقص ، ثم أحست بذراعه تضغطها إلى صدره وتقسو عليها وكأنه يريد أن يخفيها في ثيابه ويفر بها ، ثم أحست بكفه تتحرك فوق ظهرها وتتردد بين كتفيها كأنها كف أعمى يبحث عن باب الدخول ..

لم يتكلما خلال الرقص ، ولم يتكلما بعد الرقص ، وعادا إلى مقعديهما صامتين دون أن يحاول أحدهما أن ينظر إلى الآخر.

ولو نظرت إليه لرأت وجهه وقد احتقنت الدماء تحت بشرته البيضاء حتى بدا كثمرة اللفت .. ولرأت حبات من العرق تنتشر فوق جبهته كأنها دموع عذراء افتضحت خطيئتها .. ولرأت جفنيه وقد انسدلا فوق عينيه وكأنهما ستار مسرح انسدل

فوق الفصل الأول من مأساة لم يكتب مؤلفها فصلها الثانى بعد .

ولو نظر إليها .. إلى أمينة .. لوجد وجهها جامدا لا يعبر عن شيء ، وكأنه حائر فيما يعبر عنه .. ولرأى عينيها مرفوعتين تنظران إلى بعيد وكأنهما ترقبان نتيجة تجربة جديدة تجريها عليها السماء !.

وحاول أن يتكلم ، فقال كلاما سخيفا وصوته يكاد يخنقه .

وحاولت أن تتكلم فقالت كلاما أسخف ، وصوتها يتعثر بين شفتيها ..

إلى أن دعاهما لحن هادئ آخر فقاما يرقصان على استحياء وكأنهما يسيران فى طريق الاثم ، وعرضت أمينة نفسها للتجربة من جديد ، بينما بقية الزملاء والزميلات يتغامزون عليهما ويتضاحكون ، ثم اتفقوا فيما بينهم همسا ، وإذا بهم يكونون حلقة حولهما ويدورون وهم ينشدون فى صوت صاخب الأغنية الفرنسية الشعبية : « نم يا أخى جاك » !

وحاولا أن يشتركا مع الزملاء والزميلات فى تهليلهم ، وأن يتقبلا هزرهم بروح الشباب السمحة ، ولكن كان هناك شئ بينهما يضنان عليه بتكدير صفوه ويحرصان عليه من أن يضيع وسط هذا التهريج والتهليل .. فوجدا نفسيهما ينظران إلى زملائهما بعيون متوسلة بأن يتركوهما فى هدوء ، وعلى شفتي كل منهما ابتسامة مفتعلة ..

ولما لم يتركهما الزملاء تسللا إلى خارج الحفل ، وركبا السيارة ، وسألها جلال بالانجليزية دون أن ينظر إليها :

– إلى أين ؟

قالت فى صوت خافت :

– إلى البيت .. بيتى !.

ولم يرد جلال ولم يعارض ، وربما غلبه حياؤه فلم يستطع أن يواجه نفسه ليعلم أنه لا يريد أن يتركها الآن .. والآن خصوصا ..

ثم قاد سيارته ..

ووقف أمام بيتها ..

وكان شارع البورصة الجديد هادئا فى مثل هذه الساعة ، ومصباح النور يلقى على السيارة ومن فيها ظلا خفيفا كأنه يلقى عليها غلالة رقيقة تلفها عن أعين النجوم ..

ومدت له يدها مصافحة فى صمت ، فأمسك بها طويلا وضغط عليها وقد أرخى عينيه ، وكأنه يستجمع شجاعته ..

ثم رفع إليها عينيه وتقابل مع عينيها فى عناق هادىء ، فهمت منه ما يريد ، وفهم منها ، أنه يستطيع !.

ومال برأسه إليها حتى قاربت شفتاه شفتيها ..

وأغمضت عينيها حتى لا تتراجع ، وأحست بشىء يدق فى صدرها وكأنها على وشك أن تلقى بنفسها فى هاوية ، ثم ارتفعت فى مخيلتها فجأة صورة الرجل الذى حاول أن يعتدى عليها وهى فى العاشرة من عمرها ، وارتجفت كأنها تخاف

أن تصـــدمـها مـرة أخـرى أنفاسـه الكريهـة وأن تحس بثـقل شفتيه المحمومتيـن وهما تندسان بين شفتيها .. ورغم ذلك فلم تتراجع وضغطت بأعصابها على جفنيها المنسدلين فوق عينيها وكـأنها تحـاول ألا ترى صـورة هذا الرجل الذى ارتفـعت فى خيالها ..

كان يجب أن تجتاز هذه التجربة ..

وكان يجب أن تقتل هذه الحادثة التى مـرت بطفولتها حتى لا تزعجها مرة ثانية .

ولم تحس بأنفاس كريهة وإنما أحست بأنفاس جلال تطوف بوجهـها كأنـها لمسات الآلهـة ، فيهـا قوة وفـيها رحـمة .. ثم أحست بشفتيه الرقيقتين تقعان فى رفق ، نصفهما فوق زاوية خدها ونصفهما فوق شفتيها .

واستقرت القبلة برهة ..

ثم رفع شفتيه عنها .. واحتضن خدها بخده بينما ذراعاه قد التفتا حـول كتفيها يضمـانها فى شبه ابتهال ، وكـأنهما ذراعا مؤمن يحتضن مقام أحد الأولياء بينما يمسح فيه وجهه ويكاد يبكى لفرط إيمانه وخشوعه ..

ونزعت نفسـها عنه فى رفق ..

ونظرت إليه فى حنان وعلى شفتيها ابتسامة حيية خجلة ..

ثم فتحت باب السيارة ونزلت ..

وأطلت عليه للمرة الأخيرة وفى عينيه دعوة ورجاء ..

ثم أدارت ظهرها واختفت ..

وقـضت ليلتهـا تفكر فـيمـا حدث .. وكـانت تفكر برأسـهـا لا بقلبها .. وكـانت سعيدة .. سـعيدة لأنها تغلبت على نفـسها وسارت فى طريق القبلات ..

وخـيل إليهـا أنه طريق كان يجـب أن تجتـازه لتكتمل لهـا الحرية !



٧

وقضت أمينة أربع سنوات فى الجامعة الأمريكية .. سنوات مرحلة ملؤها الحياة والشباب .. وكـانت خلالها محتفظة دائما بصداقة جلال ، لم يتطور شعورها نحوه إلى أكثر من الصداقة كانت تحرص عليـه ، وكانت تغار عليه ، وكـانت أحيانا تضطر للكفـاح فى سبـيل الاحـتـفـاظ به عندمـا يخطر لواحـدة من زميلاتهـا أن تغتصبه منها ، ورغم ذلك ظل شـعورها لا يعدو

شعور الصداقة والزمالة ، أو هو شعور أكثر من الصداقة قليلا وأكثر من الزمالة قليلا . حتى القبل التى ملأت أيامهما خلال هذه السنوات لم تستطع أن ترتفع بها إلى سماء أعلى من السماء التى عاشت تحتها ، أو تنزل بها إلى أرض غير الأرض التى عاشت فوقها .. وقد تطورت هذه القبل نفسها .. لم تعد شفتاها تقعان نصفهما على زاوية وجنتيها ونصفهما على طرفى شفتيها كما كانت القبلة الأولى ، ولم تعد قبلته لمسة عابرة كلمس الحرير ، أو طرقة خفيفة كطرقات الندى ، بل أصبحت شفتاه تعرفان طريقهما إلى شفتيها فى سهولة ويسر وتنطبقان عليهما كأنهما أصبعا خبير فى المساحة يعرف أين أولهما وأين آخرهما ، ثم تنتفضان بينهما كأنهما شفتا ظمآن يعب من جدول عذب يكاد يأتى عليه كله لولا أن يده تقصر إلا عن قطرات منه ..

وكانت هذه القبلات تعصف به أحيانا وتسرى فى بدنه كاللهب ، فتحس بأنفاسه وقد ذابت رقتها وتلاشى ما فيها من رحمة ، وأصبحت كلفح النار ، تطوف بوجهها وتملأ أذنيها وتسرى فى فتحات أنفها كالعاصفة الهوجاء ، وتحس بكفيه وقد جنتا لا تستقران ولا ترحمان ، وتحس بأصابعه وكأنما أصيبت بالصرع فتشنجت فوق كتفيها ثم فوق صدرها ثم رقدت فى طيات شعرها ، ثم تحس به كله يعربد بين ذراعيها كأنه سكران يترنح حول عامود النور لا يريد أن يبتعد عنه ولا يعرف كيف يمسك به !.

وقد تعودت هذا كله ، وأقبلت عليه ، ولكنه لم يفقدها أبدا رأسها ..

ولم تكن تتعمد أن تحتفظ برأسها وهى تقبله ، ولكن رأسها لم يكن يتخلى عنها ..

وربما مرت لحظات أحست فيها أنها هامت في واحدة من هذه القبل حتى تكاد تفقد الوعى وتنصهر معه في بوتقة واحدة .. ولكن هذه اللحظات لم تكن سوى مجرد لحظات تعبر سريعا ، ويعود رأسها بعدها إلى مكانه ، وتعود تتلقى قبلات كأنها تلعق بشفتيها قرطاسا من الجيلاتى ، أو كأنها تراقب تجربة علمية ، أو كأنها تتسلى بشيء تحب أن تتسلى به ، أو على أسوأ الفروض كانت كمن يجرى له عملية جراحية تحت تأثير « بنج موضعى » ، لا يحس بالعملية نفسها ويظل محتفظا بوعيه يرقب به أصابع الطبيب وهى تعمل فى جسده ..

وربما كان لاقبالها على هذه القبلات معنى آخر .. ربما شعرت بها أنها حرة وأنها تحررت بها من التقاليد التى أزعجت طفولتها وشبابها اللذين قضتهما فى حى العباسية ، وتحررت بها من هذا النفور الذى كان يدفعها إلى أن تثور على كل فتى يحاول أن يقربها .. هذا الشعور الذى تخلف فى صدرها منذ حاول هذا الرجل أن يعتدى عليها عندما كانت فى العاشرة من عمرها ..

وربما أرادت بهذه القبلات أن ترضى غرورها الغريزى كشابة ناضجة يشتهيها الرجال ، وربما أرادت بها أن تسكت خيالها الذى كان يعذبها كلما سمعت باب الشقة الملاصقة يفتح أو يغلق ، وأن تجيب على تساؤلها بينها وبين نفسها : هل هى باردة ؟

أو ربما دلتها غـريزتها كأنثى إلى أنها لكى تحتـفظ بصداقة جلال طوال هذه السنوات كان يجب أن ترضى فـيه مظهرا من مظاهر رجولتـه ما دامت لن تخـسر شيـئا ولن تكلف نفسـها شيئا بإرضائه ..

وربما كان إقبالها على هذه القبلات مرجعه كل هذه الأسباب مجتمعة !

ولم يكن جلال ولا قبلاته يزعجـانها فى شىء .. فقد كانت شخصيتها دائما طاغية على شخـصيته ، وكان دائما رقيقا عفا حريصـا على إرضائها .. لم يـرد شيئـا لم ترده ، ولم يفرض عليـها امـرا ، ولم يتـدخل فـى تصـرفـاتهـا وفى حـريتـهـا الشـخصـية ، بل لم يكن يـحاول أن يقـبلها إلا إذا أوحت إليـه بتقبـيلها .. ثم لم يكن كل ما يربطه بها مجـرد هذه القبلات أو انتظاره لهـا ، فقـد ملأت حـياته كـلها . كـانا يستـغرقـان فى أحاديث تدوم سـاعات ، وكانت تبـتدع له مع كل صبـاح يوما جـديدا يضم نوعا جـديدا من الحـياة ، وكـانت تصـر على أن يستذكر دروسه معهـا فكان ينجح أحيانا وأحيانا يتفوق ، رغم أن حياته المدرسيـة كانت دائما تتعثر ، ولم يعـد يستغنى عنها حـتى فى فتـرات الإجازة الصـيفـية ، فكان يتـرك عائلتـه فى الاسكندرية ليصحبها فى القاهرة ، أو كان يدعوها لتصـحبه فى الاسكندرية ..

واعتقد الزملاء كلهم أنهما سيـتزوجان بمجرد تخرجهما فى

الجامعة ، بل أن عائلته نفسها بدأت تقدر هذا الزواج ، وتعد العدة لمقاومته ..

وقد تخرجا ..

ووقفت أمينة أثناء حفلة توزيع الشهادات تختلس النظر إلى جلال كأنها فرحة به وهو فى ثيابه الجامعية ، وكأنها هى التى صنعت نجاحه .. وصفقت طويلا عندما جاء دوره ليتسلم شهادته ..

ووقف جلال وعيناه فوقه أمينة وهى فى ثيابها الجامعية ، وكأنها فى ثياب العرس وكأن هذا الحفل حفل زفافهما .. ثم أطرق حياء وهى تتسلم شهادتها وكأنما تخيلها أمام المأذون وهو بجانبها ..

ووقفا معا يستمعان إلى خطاب وزير المعارف التقليدى فى هذه الحفلة ، وكف كل منهما فى كف الآخر ، وكأنهما يستمعان إلى نصائح قسيس فى زفاف كاثوليكى ، لا يعيان منها شيئا ويتعجلان نهايتها حتى يخلو أحدهما للآخر ..

واحتار الزملاء : هل يهنئونهما بالتخرج أم بالزواج ؟!

وقطعت أمينة تهانى الزملاء ، وأسرعت إلى أبيها الذى كان ضمن المدعوين فى الحفل ، وألقت نفسها فوق صدره ، وتعلقت فى عنقه كعادتها ، وأخذت تقبله أمام الناس كما لم تقبله من قبل .. ثم ابتعدت عنه قليلا ومدت له يدها بالوثيقة التى تحمل شهادة تخرجها وكأنها تقدم له وثيقة تحررها من العبودية ..

وطفرت الدموع فى عينى أبيـها .. دموع السيد الطبيب الذى لم يشعـر أبدا أنه سيد حـتى يوم ثار عليه عبـده وحصل على حريته ..

لقد أصبحت حرة ..

●●●

لا .. لا تزال هناك خطوة أخرى ..

يجب أن تبحث عن عمـل تعول به نفسـها ، حـتى تتحرر من حاجتها إلى أبيها ، ومن حاجتها إلى زوج يعولها بعد أبيها ..

وخطت أمينة إلى الحياة باحثة عن عمل ..

وكانت خـطواتها سريـعة ثابتة حـتى لم يستـطع جلال أن يلحق بها .. وأحس كل منهما أن المسـافة تبعد بينه وبين الآخر ، وحاولا كثيرا أن يحتفظا بصداقتهما وأن يستمرا فى حياتهما كـمـا كانا خـلال سنوات الجـامـعـة .. ولكنهـا بدأت تحس أن حاجتها إليه وإلى صـداقته بدأت تضعف يوما بعد يوم .. وبدأ يحس أن دنيـاها بدأت تبتعـد عن دنياه يومـا بعد يوم وأخـيرا وجد كل منهما نفسه ـ دون تـعمد ـ فى عالم خاص ، ولم يعد بينهما سوى لقاء صدفة ، أو دعوة عابرة يجلسان فيها أحدهما إلى الآخر دون أن يجمع بينهمـا شىء إلا ذكريات دراسية ملأ استعادتها .

وخرج جلال من حياتها ..

وحصلت بمساعدة عميد الجامعة على وظيفة بقسم المبيعات والاتصالات العـامة بإحدى الشـركات الامريكيـة الكبرى التى تبيع منتجاتها فى مصر ..

وقبضت مرتبها الأول ثلاثين جنيها عن الشهر ..

وأبقت النقود فى كفها تنظر إليها وهى لا تكاد تصدق عينيها .. إنه أكبر مبلغ ضمته بين أصابعها فى حياتها ، بل إن والدها مضى عليه ثلاثة وعشرون عاما موظفا فى الحكومة ولا يزيد مرتبه على هذا المبلغ إلا قليلا ..

ماذا تفعل بكل هذه النقود ؟

واستعرضت فى مخيلتها جميع حوانيت شارع فؤاد وشارع قصر النيل وشارع سليمان وما فيها من ثياب وأقمشة وأحذية وعطور .. ثم مر بخاطرها أن تحتفظ بكل هذا المبلغ فى أحد البنوك ، وفى برهة واحدة تخيلت نفسها تملك ثلاثمائة جنيه بعد عشرة شهور ،وستمائة بعد عشرين شهرا .

وتوقف خيالها عن عمليات الحساب كأنها تذكرت شيئا .. ثم أسرعت عائدة إلى بيتها ، ودخلت إلى أبيها وقبل أن تقبله كعادتها ، أمسكت بيده وفتحت كفه ووضعت فيها النقود كلها..

وقال أبوها وعلى فمه ابتسامته الطيبة :

– إيه ده كله يا أمينة ..

قالت وكأنها تكلل رأسه بأكاليل الغار :

– دى ماهيتى يا بابا .. أنت أحق بيها منى .. انت اللى ربتنى ، وانت اللى صرفت علىّ لغاية ما اشتغلت وجبت الفلوس دى ..

ونظر إليها أبوها وقال وابتسامته تكاد تقفز فرحا من فوق شفتيه ، بينما فى عينيه شىء كالعتاب :

– أنا ما صرفتش عليكى حاجة يا أمينة ، أنا باصرف على نفسى وأنت حتة من نفسى !!

ثم مد أصابعه والتقط من بين الثلاثين جنيها قطعة من ذات الخمسة قروش ، وقال وهو يرد لها الباقي :

– أنا حاخد دى من البركة .. حاحتفظ بيها تذكار لأول ماهية لك، والباقي شيليه معاكي .. لازم تتعلمي من دلوقت حاتعملى إيه بالفلوس ..

وحاولت أن تتكلم ، ولكنه جذبها من ذراعيها وأجلسها على ركبتيه، وأسند رأسها إلى صدره ، وقال وهو يقبلها فوق جبينها :

– فيه واحد بس فى الدنيا كلها عمرك ما حتكبرى فى عينه مهما كبرت ومهما خدت شهادات ومهما كسبت فلوس .. أبوكى يا أمينة .. أنا النهاردة شايفك زى يوم ما أتولدت وزى ما كنت بتلعبى فى حارة نصير وشارع بين الجناين .. يوم ما خدت الشهادة ما بقتش مصدق عنية ، بأه متهيأ لى إنك لسه بتلعبى وبيدوك جايزة على اللعب بتاعك ، والنهاردة وانت جايالى بماهيتك برضه مش مصدق .. بأه أمينة بنتى وحبيبتى الصغيرة اشتغلت وبتكسب فلوس .. مش معقول !! ورغم كده أنا فخور بيكى .. فخور بنجاحك وفخور بشغلك .. والحاجة الوحيدة اللى تقدرى تعمليها لى أنك تخلينى دايما فخور بيكى..

وضمت أمينة أباها إلى صدرها بكل ما فيها من حنان ، وقالت وكأنها تقسم قسما عظيما :

– بإذن الله يا بابا .. حتفضل طول عمرك فخور بيه ..

وعندما خرجت أمينة بعد الغداء وفى حقيبتها مرتبها كله لم تشتر ثوبا ولا حذاء ، إنما اشترت « روب دى شامبر »

لوالدها واشترت لعمتها عقدا وحلقا من الخرز اللامع الكثير الألوان الذى تفضله ، واشترت لزوج عمتها قلم حبر ، واشترت لابن عمتها الأكبر مجموعة من الاسطوانات واشترت للعائلة كلها فاكهة وحلوى ..

واستقبلتها عمتها مهللة :

– والله فيكي الخير يا امينة يا بنتي .. ربنا ينجحك كمان وكمان .. ده أنا كل ما روح حتة أقول بنتي خدت الشهادة الكبيرة وبقت موظفة أد الدنيا .. والله ما حد فلح في بنات الحتة إلا أنت .. أهي بنت سنية هانم حتتطلق وفي بيت أبوها بقالها شهرين .. وعلية بنت تزتك عزيزة هانم لسه بيدوروا لها على العريس.. فضلت ست عزيزة تتعزز لما البنت بارت ..

وابتسمت أمينة فى حياء وتواضع كأنها نالت شهادة أخرى من عمتها ..

وقال زوج عمتها ، ولأول مرة تحس بما يكنه لها من حب وحنان ، كان خافيا عنها من قبل وراء الأحاسيس التى كانت تعصف بها فى طفولتها وفى شبابها المبكر :

– أهو مش فاضل عليكي دلوقت يا أمينة إلا الجواز .. ده مصير كل واحدة عاقلة وعايزة تسعد فى حياتها .. لو جيتي للحق أنا لسة ما تعودتش أن يكون فى العيلة بنات متوظفين .

وقاطعته زوجته وكأنها خافت أن يغضب أمينة :

– بلا جواز بلا نيلة .. هى الواحدة واخدة إيه من الجواز إلا الهم وتعب القلب ..

ثم خافت أن تغضب زوجها فالتفتت إليه وهى تنظر فى دلال مفتعل :

– غرشى أنا اللى بختى كويس ..

وسعدت أمينة بالساعات التى قضتها فى العباسية ، وامتلأ صدرها بذكريات طفولتها ، وخرجت من بيت عمتها لتطوف على مراتع صباها ، ووقفت على محطة الترام ترقب ترام الخليج نمرة ٢٢ الذى حملها خمس سنوات متتالية ذهابا وإيابا عندما كانت طالبة فى مدرسة السنية .. وخيل إليها أنها ظلمت طفولتها عندما اعتقدت أنها طفولة معذبة ، وظلمت عمتها وزوج عمتها عندما اعتقدت أنهما كانا يقسوان عليها ويفضلان أولادهما عليها ..

وأحست أنها صفحت عن العباسية كلها لما دار على ألسنة أهلها من أقاويل عنها ، وتمنت لو أن العباسية صفحت عنها أيضا وقدرت لها نجاحها وجهادها فى سبيل حريتها حتى نالت شهادة الجامعة والتحقت بعمل شريف مرتبه ثلاثون جنيها فى الشهر ..

●●●

ومر عامان وأمينة تعمل فى الشركة الأمريكية ، وقد وهبت عملها كل شىء فيها .. شبابها وذكاءها وعملها وخيالها وساعات عمرها ، وسهلت لها جرأتها ولباقتها وخفة دمها وفتنتها سبيل الاتصال بالناس ، فأنتجت كثيرا وقدرت الشركة انتاجها فدفعت بها إلى الأمام حتى أصبحت رئيسة « قسم المبيعات والاتصالات العامة » وأصبح لها حجرة خاصة تجلس فيها ، وتليفون خاص وأصبح لها سكرتيرة خاصة ـ تدفع الشركة مرتبها ـ تستقبل عنها الناس وتكتب لها الخطابات ، بل

أن الشركة وضـعت تحت أمرها سيارة خـاصة تستعـملها فى تنقلاتهـا وتقودها بنفسهـا .. وارتفع مرتبها فى خـلال عامين فقط إلى سبعين جنيها فى الشهـر غير نسبة مئوية ضئيلة عن المبيعات يصل مجموعها إلى حوالى ثلاثين جنيها فى الشهر ..

واكتمل لها كل شىء .. النجاح والحرية ..

ورغم ذلك لم تكتـمل لها السـعادة .. كـانت تحس أن هناك شيئا ينقصها .. شيـئا كالفراغ يحيط بها من كل جانب .. فراغ كبير ..

وكان عملها قد بدأ يفقـد جدته ، ويتخذ يوما بعد يوم شكلا روتينيا ، وكانت قد أجادته حتى لـم يعد يأخذ كثيرا من فكرها ولا كثيرا من وقتها ..

وكان قد أحاط بـها منذ التحقت بالعمل كثـير من الرجال .. رجال من مختلف الملل والأجناس كلهم أغنيـاء ، وكان كثيرون منهم يتـوددون إليها ، ويتـغالون فى توددهم حـتى ينقلب إلى غزل ، كـانت الدعـوات تلاحقـها دائمـا .. دعوات إلى حـفلات كوكتيل .. وإلى حفلات راقصة ، وإلى تناول الغداء فى النوادى الكبرى ، ودعوات مقصـورة عليها وعلى الداعى ، حتى لم يعد يمر بها يوم إلا وتلحقها دعوة أو دعوتان ..

ولكن كل هؤلاء الرجـال كـانوا جـزءا من عملهـا ، وكـانت تعرف دائمـا الحد الذى توقفهم عـنده ، وكانت دائما محـتفظة أمامهم بكرامتها واحترامـها كفتاة عاملة ، وربما أرادت يوما أن تلهو فسمحت لأحدهم أن يقبلـها قبلة سريعة أو سمحت له أن يضـمهـا إلى صـدره أثناء الرقص أكـثـر قليلا مما يسـتلزمـه

الرقص ، ولكنه كان دائما لهوا سطحيا لا يخلف وراءه أثرا ، أو يخلف في نفسها شيئا ..

كما أن هذه الدعوات وهذه الحفلات قد تعددت حتى لم يعد فيها شيء جديد ، بل أنها تكاد تعرف ما سيحدث في كل دعوة ، وتحدد المواضيع التي ستتحدث فيها خلالها قبل أن تذهب إليها .. واتسع الفرغ الكبير الذي يحيط بها ..

ولم تستطع عائلتها أن تملأ جزءا ولو صغيرا من الفراغ ، فإن عمتها وزوج عمتها وأولاد عمتها بدأوا ينظرون إليها كأنها إله المعجزات منذ عرفوا أن مرتبها ارتفع إلى مائة جنيه في الشهر أو يزيد ، وبدأوا يتحدثون إليها في شيء من النفاق وشيء من التملق ، وبدأت عواطفهم الساذجة الحلوة يفسدها هذا النفاق وهذ التملق .. أما والدها فلا يزال في عزلته وفي دنياه الخاصة يحبها ويقبلها ويعاملها كفتاة صغيرة مدللة ، فلا يحاول أن يفهمها ولا يشجعها على أن تفهمه نفسها ..

ولم يكن لها صديقات .. فصديقة صباها فورتينيه قد فقدتها منذ زمن طويل ، وقد قابلتها مرة في شارع قصر النيل فلم تذكر صداقتهما ، إنما اعتبرتها زبونة يمكن إغراؤها فأخذت تلح عليها أن تأتي لزيارتها في « اتلييه » الخياطة الذي افتتحته أخيرا مع أمها .. وصديقات العباسية لم تعد تدري عنهن شيئا وربما قابلت إحداهن وتعرفت كل منهما على الأخرى دون أن تحاول تحيتها ، وصديقات الجامعة قد اختفت كل منهن في دنياها ، ولم يعد لقاؤها صدفة بإحداهن يزيد عن صرخة من صرخات الفرح كأن كلا منهن قد التقت بيوم من

أيام شبابها ، ثم تسكت الصرخة ويعقبها سؤال متكلف عن الصحة والأحوال .. أما الفتيات والنساء اللواتى التقت بهن بعد التحاقها بالعمل فكانت تراهن كثيرا وتحادثهن طويلا وتشاركهن الحفلات والدعوات ، ولكنها لم تجد بينهن واحدة تتخذها صديقة وكان يفصل بينها وبينهن دائما أستار سوداء من التكلف والغيرة والحسد ..

وازداد اتساع الفراغ الكبير الذى يحيط بها ..

وأخذت تستعرض بين حين وآخر حياتها كلها ، وخيل إليها أنها جاهدت طويلا منذ كانت تضربها عمتها بالشبشب ، ثم عندما ثارت على البيت وحاولت الهرب ، ثم عندما ثارت على حى العباسية وتقاليده والتجأت إلى حى الظاهر تعيش بين فتيانه وفتياته تراقصهم وتلهو معهم ، ثم عندما اختارت الجامعة الأمريكية هربا من العقلية المصرية كلها ..

إنه جهاد طويل عذبها خلاله عنادها ، وقضت السنين تعصف بها أحاسيسها الهوجاء .. كان جهادا فى سبيل حريتها.. الحرية من البيت ، والحرية من التقاليد ، والحرية من الشرق ، والحرية من حاجتها إلى الناس .. كل الناس .. ولم تكن تعتقد أن طريق الحرية .. هذا الطريق الشاق الذى لهثت فى كل خطوة خطتها فيه ، يمكن أن ينتهى إلى هذا الفراغ الكبير .. لم تكن تعتقد أن الحرية نفسها هى هذا الفراغ !!

وقد ظنت ـ بين الظنون الكثيرة التى خطرت لها ـ أنه لن يملأ هذا الفراغ إلا رجل .. رجل يمنحها أكثر من القبلات وأكثر من الصداقة ..

واستعرضت الرجال الذين مـروا فى حياتها وكان يمكن أن يملأ أحدهم هذا الفراغ ..

جلال .. لقد قابلته أخيرا فى صحبة فتاة جميلة أنيقة قدمها لها عـلى أنها خطيبته فـتمنت لهـما ، صـادقة من كل قلبـها ، السعادة والهناء ..

أحمد .. الذى جاءها يوما خاطبا ورفضت الزواج به لتلتحق بالجامـعة ، لقـد صادفتـه مرة فى الطريق وفى ذراعـه امرأة حبلى يتقدمها بطن منفوخ ، وقد تجاهلها يومها رغم أن وجهها كان فى وجهه ، ولا بد أنه لم يرو لزوجته أنه حاول أن يخطب فتاة أخرى قبلها ، ولابد أنه خاف أن يحيـيها فتغضب زوجته ، وقد اشفقت عليه ورثت لعقليـته .. ثم تصورت نفسها أنها فى مكان زوجته وأنها تسير بجانبه منفوخة البطن هكذا .. فحمدت الله !

عـبـاس .. وتوقف خيـالهـا برهة عندمـا ارتفع اسـمـه إلى رأسها.. لماذا تدخله دائما ضمن الرجال الذين مروا فى حياتها؟ إنه لم يكن بينهما سـوى أن نظرت إليه وأطالت النظر ، وسوى أن أحمـرت أذناه عندما مر بها .. وكـان هذا منذ زمان طويل .. ومنذ أن غادرت حى العباسيـة لم تلتق به صدفة ولم تر وجهه يوما من الأيام ..

ورغم ذلك فكانت دائما تدخله فى حسابهـا كلما استعرضت حياتها ، وكانت تتبع أنبـاءه من بعيد ، أو أن انباءه كانت تصل إليها من بعيد ..

إنها تعرف أنه تخـرج فى كلية الحقوق قـبل أن تتخرج فى

الجامعة الأمريكية بعامين .. وتعرف أنه اشتغل بالمحاماة فترة ثم جمع بينها وبين الاشتغال بالصحافة .. وقد قرأت مقالاته كلها التى نشرت ووقعها باسمه وكان يخيل إليها أنها تراه من وراء سطوره كما تعودت أن تراه وهو يسير فى شارع الجنزورى فى طريقه إلى مدرسة فؤاد الأول .. جادا صارما يضرب الأرض بقدميه فى قوة وكأنه يريد أن يشعلها نارا ..

ترى هل يعرف من انبائها مثل ما تعرف من أنبائه ؟!

وجذبت مجلة أسبوعية من جانبها ، وقلبت صفحاتها ثم أخذت تقرأ للمرة الثانيةمقالا موقعا باسم عباس ..

ولم تتم قراءة المقال ، وألقت بالمجلة جانبا ، ثم جذبت إليها آلة التليفون .. وأدارت القرص بالأرقام التى استخرجتها من المجلة بينما كانت تبتسم ابتسامة كبيرة وكأنها تلهو لهوا مثيرا، ورد عليها عامل التليفون ، وطلبت أن تحادث الاستاذ عباس ..

وسمعت صوت عباس .. سمعته لأول مرة .. خفيضا هادئا بطيئا ، كأنه صوت رجل كسول لا يريد أن يكلف نفسه فيفتح شفتيه قليلا .. ولكنها لمحت فى صوته رجفة خفية خيل إليها معها أن اذنيه قد أحمرتا كما تعودتا أن تحمرا كلما كان يصادفها فى حى العباسية .. واتسعت ابتسامتها وهى تتخيل أذنيه ، ثم قالت فى صوت حاولت أن يكون جادا ، وحاولت أن تخفى به ابتسامتها :

– أنا أمينة « ..... » من شركة التوريدات الأمريكية .

– أهلا وسهلا ..

– أقدر أقابلك فى مكتبك يا أستاذ ؟

– امتى ؟

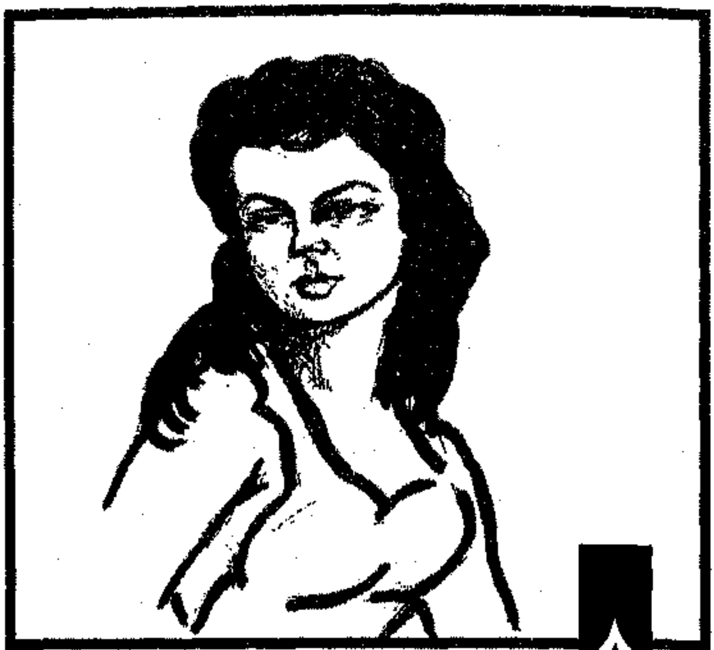
– بكره الساعة حداشر إذا كان ممكن ..

– كويس .. أورفوار !

– مع السلامة ..

ووضعت سماعة التليفون ، واتسعت ابتسامتها حتى كادت تضحك ..

ونامت وأحلامها مع عباس .. عباس الطالب فى مدرسة فؤاد الأول الذى كانت تتعقبه بنظراتها ، لا عباس كما هو الآن .



٨

وكانت صباحها مثيرا ، ولم تكن تدرى ما الذى يثيرها منه، إنما قامت من نـومها مـبكرة عن عادتها ، ووقـفت أمام ثيـابها حـائرة أى ثوب تخـتاره ، ولم تكـن من قبل تحـتـار أبدا ، ثم أخذت تمشط شعرها ، وتعود تمشطه مـرة ثانية وقد خيل إليها أن « الفـرق » ليس فى مكانه تمامـا ، ثم تضع الأصـبـاغ على وجهها ويخيل إليها أنها أكثرت منها ، فتعود تخففها ..

وكانت فى مكتبها بشركة التوريدات الامريكية قبل موعدها المعتاد ، وصرفت أعمالها بسرعة ، حتى وجدت نفسها بعد قليل خالية لا تجد شيئا تعمله ..

ونظرت إلى ساعتها .. إنها العاشرة ..

وأخذت تعبث ببعض الأوراق ، وخيل إليها أنها استغرقت وقتا طويلا فى العبث بها ، ثم نظرت إلى ساعتها فإذا بها العاشرة وعشر دقائق ..

وغادرت مكتبها ، وركبت سيارتها وأخذت تطوف ببعض عملاء الشركة ، ثم نظرت إلى ساعة فى الطريق فإذا بها العاشرة والنصف .. وطافت ببعض عملاء آخرين إلى أن تأكدت أن الساعة قد بلغت الحادية عشرة إلا خمس دقائق فتوجهت إلى مكتب عباس .

وربما تجاهلت أن صباحها كان مثيرا ، أو ربما اعترفت بهذه الإثارة ولم تجد لها تعليلا .. فليس فى هذا الصباح شىء جديد إلا موعدها مع عباس ، وقد تعودت أن ترتبط كل صباح بمواعيد مع كثيرين من عملاء الشركة ، ومع بعض الصحفيين أيضا ، فإن عملها يحتم عليها الاتصال بالصحافة لتنظيم الحملات الاعلانية .. فليس موعدها مع عباس أيضا شيئا جديدا .. فما الذى يثيرها من هذا الموعد ؟ ربما لهفتها على أن تراه بعد هذا العمر الطويل ، وربما ذكريات صباها الذى قضت أياما طويلة منه تتبعه بعينيها ، وربما رغبتها فى أن تتباهى أمامه بنجاحها كما يتباهى كل زميلين من زملاء الصبا ..

واقتربت من مكتب عباس .. وخيل إليها أنها ستقف قبالته

طويلا لتملأ عينيهـا من وجهه .. هذا الوجه الذى لم تره إلا فى لمحات عابرة سـريعة .. تريد أن تتحقق من شـبهه ، ومن شكل أنفـه وشفـتيـه ومن لون عينيـه ، وتريد أن تكتشـف سـر هذه الصرامـة التى ترتسم دائما على هذا الوجه ، وتريد أن تتـأكد أنه يستطيع أن يبتسم وأن يضحك وأن ينكت ..

ولكنها عندما دخلت إليه ووقفت قبالته ، لم تسقط عيناها إلا فوق أذنيه .. ورأتهمـا وقد احمرتا حتى أصبحتـا كقطعتين من كبده ..

وابتسـمت ابتسـامة خـافتة ، ومـلأ صدرها شـعور رطب بالاطمئنان والزهو ، وكأنها عندما رأت احمرار اذنيه ، اطمأنت إلى مكانها منه وزهت بهذا المكان ..

ومدت يدها تصافحه ، ولم تمض بـرهة خاطفة حتى أحست أن يدها قـد رقدت فى يده طويلا حـتى تكاد تغفـو فى راحـته فسحبتها بسرعة ، وسمعت صوته يقول لها :

– اتفضلى .. أهلا وسـهلا ..

وجلست على مـقـعد جـاف بجـانب مكتـبه ، وقـالت وهى لا تكاد ترفع عينيها إليه :

– أظنك فاكرنى ؟!

قال بسرعة :

– أنا عمرى ما نسيتك !

قـالت وقد رفـعت إليه عـينين مندهشـتـين ومن تحتـهمـا ابتسامة متعجبة :

– صحيح !!

وكأنما أحس أن لسانه أفلت منه فاستدرك قائلاً وقد اشتد احمرار أذنيه :

– الواحد عمره ما ينسى أيام الطفولة .. وإحنا عشنا في حي واحد وشارع واحد وكنت صديقة لأختى ..

وقالت وقد اتسعت ابتسامتها بعد أن عودت عينيها أن تنظرا إلى وجهه الجاد الصارم :

– ما كنتش فاكره أنك أنت كمان كنت طفل .. انت كنت دايما كبير وجد .. عمرى ما شفتك بتلعب مع الأولاد أو بتصاحبهم.. وكانت اختك بتخاف منك ، وأنا كمان كنت باخاف منك ..

وابتسم ، ولأول مرة ترى ابتسامته .. ضيقة كسولة كصوته ، وكأنها فرجة من النور في لوحة من الحديد ، وقال :

– كنت وأنا صغير غاوى قراية .. وكانت القراية ما بتخليش عندى وقت علشان أتفاهم مع اختى ..

قالت تقاطعه :

– يظهر إنك ما كنتش بتحاول تتفاهم مع حد !

ورفع إليها عينيه وكأنه فهم ما تقصده ، وكانت تظن دائما أنها سترى في عينيه نارا ثائرة ، ولكن ، عندما رفعهما إليها ، رأت فيهما حنانا هادئا كأنهما ترويان قصة من قصص الأطفال عسى أن ينام الطفل .. وقال :

– كنت أفضل دايما إنى انتظر ..

واصطبغت وجنتاها بلون الورد ، وأدارت عنه عينيها وقالت في صوت خفيض :

– على كل حال الكلام ده كان من زمان .. من زمان قوى ..

متهيأ لى إنه فات ميت سنة من أيام ما كنا ساكنين فى شارع الجنزورى .. ومن ميت سنة وأنا باجرى واتعب لغاية ما وصلت ..

قال وكأنه يتهكم :

– وصلت لفين ؟

– للحرية .. حريتى .. الحرية اللى العباسية بتعتبرها قلة أدب .. أنا دلوقت حرة وما أظنش إنى قليلة الأدب ..

قال وبين شفتيه ابتسامة ساخرة :

– وما أظنش إنك حرة !

قالت فى حدة وكأنها أهينت :

– مش حرة إزاى .. انا أتحررت من كل حاجة .. اتحررت من العباسية ، وتحررت من التقاليد ، وتحررت من الزواج ، وتحررت من حاجتى لواحد يصرف على .. أنا دلوقت زيى زيك .. أنت عندك شهادة وأنا عندى شهادة .. وانت بتشتغل وأنا باشتغل .. وأنت بتكسب وأنا باكسب .. ومؤكد إنى باكسب أكتر منك .. يبقى إزاى أنا مش حرة .. ناقصنى إيه علشان أبقى حرة ؟!

وكان صوتها قد بدأ يرتفع وبدت كأنها غاضبة ، ورد عليها فى هدوء بارد وابتسامته الضيقة تشق شفتيه :

– ناقصك إنك تكونى حرة !!

والتفتت إليه فى حدة ، وقالت :

– اسمع يا استاذ عباس ..

وقاطعها قبل أن تتم كلامها :

– ماتزعليش .. واسمحي لي اسألك سؤال واحد .. إنتي عايزة تكوني حرة ليه ؟!

قالت وكأنها تضرب كفا على كف :

– هي الحرية كمان لازم يكون لها سبب ؟!

قال وهو جاد كأنه يلقي درسا :

– الحرية وسيلة لا غاية .. أنا مثلا عايز الحرية علشان أكتب ما أعتقده .. وباطالب بالحرية لخصمي علشان هو كمان يكتب ما يعتقده .. لأني أؤمن بأن حرية الرأي هي اللي توصلنا للرأي الصحيح .. ومصر بتطالب بالحرية مش لمجرد الحرية ، ولا لأن الحرية هي نهاية الطريق .. ابدا .. إنما لأن الدولة الحرة تقدر تخدم شعبها وترفعه .. وإذا كان الطريق إلى الحرية صعب ، فالطريق بعد الحرية أصعب .

وصمتت برهة كأنها تستوعب هذا الكلام ، ثم قالت كأنها تدافع عن نفسها :

– أنا عايزة الحرية علشان أعمل اللي أنا عايزاه !

قال مبتسما :

– عايزة إيه ؟

قالت وقد بدأت تحتد من جديد :

– عايزة أكسب قوتي بإيدي .. زي أي راجل !

قال وابتسامته لا تفارق شفتيه :

– الرجالة بيضحوا بقوتهم علشان الحرية .. يبقى مش معقول إنهم بيطالبوا بالحرية علشان القوت !

قالت وقد ارتفع صوتها :

– على كده يبقى كل الرجالة فى مصر عبيد .. ما دام بيشتغلوا علشان يكسبوا عيشهم !

– فعلا .. موظف الحكومة عبد للحكومة ، وبياع البليلة عبد للبليلة ، والعامل عبد للآلة اللى بيقف قدامها ، والفنان عبد لفنه.. إنما كل العبيد دول ليطالبوا بالحرية ، ما بيطالبوش بالتحرر من الوظيفة ، ولا من البليلة ، ولا من الآلة ، ولا من الفن .. إنما بيطالبوا بشىء أرقى وأضخم من كده .. بيطالبوا بشىء متعلق بإيمانهم .

وسكت قليلا ليرى وقع منطقه عليها ، ثم استطرد قائلا وقد دب الحماس فى صوته وسرى حتى أطراف أصابعه فبدأ يحركها فى عصبية ويلوح بها فى الهواء كأنه يحاول أن يرسم كلماته :

– تعرفى راجل اسمه توسان الفاتح ، ما قريتيش عنه فى الكتب ؟..

وهزت رأسها بالنفى وقد علقت عينيها بشفتيه ، فقال :

– أنا كتبت عنه مقال ..

ومال بمقعده إلى الوراء وجذب نسخة من المجلة التى يحرر فيها وقلب صفحاتها ، ثم بدأ يقرأ فى صوت منفعل :

– كان توسان عبدا زنجيا يعيش فى جزيرة هايتى عندما كانت مستعمرة أيام نابليون .. وكان ذكيا نشيطا فميزه سيده الأبيض عن بقية العبيد وأجزل له القوت وخفف عنه مشقة العمل وسمح له بقراءة الكتب وأحسن معاملته وزوجه المرأة التى أحبها . وكان يستطيع أن يعيش حياته مرفّها منعما وافر

القوت ، ورغم ذلك فقد ضحى توسان بكل ذلك .. ضحى بقوته وضحى براحته وسعادته وحبيبته ، ووحد العبيد من حوله ثم أعلن بهم الثورة على سيده وعلى الأسياد جميعا وانتصر عليهم ، ثم حارب نابليون نفسه وانتصر عليه أيضا .. ولو كانت الحرية هى كسب القوت الوفير لما ثار توسان على سيده ولما حارب نابليون ، ولكن الحرية فى نظر توسان كانت سيادة شعبه ليستطيع بهذه السيادة أن يحقق رفاهية هذا الشعب ويضمن له المستقبل ..

وصمتت طويلا وكأنها هامت فى حديثه أو كأنها عادت إلى الوراء .. إلى أيام توسان واشتركت معه فى حرب الحرية .. ثم أفاقت لنفسها وقالت وكأنها مرتبكة الذهن :

– يعنى كنت عايزنى اتجوز راجل يستعبدنى ..

– ما انتى دلوقت متجوزة شركة أمريكية بتستعبدك .. يمكن كان الراجل اللى تتجوزيه يبقى أرحم بيكى من الشركة .

وأحست بمنطقه يلف حول رأسها كأنه يحاول أن يقيده ، ويضرب حوله سياجا غليظا ، فصاحت وكأنها فزعة :

– إيه المنطق ده .. عايزنى اتجوز راجل ما حبوش ، بدل ما أبقى حرة وباشتغل فى شركة محترمة ؟!

قال ساخرا :

– وانتى دلوقت بتحبى الشركة ؟

قالت :

– وايه دخل الحب فى العمل ؟

قال :

– لما الواحد يبقى حر يقـوم ما يعملش إلا العمل اللى يؤمن بيـه .. والإيمـان نوع من الحب .. ومـا أظنش إنك بتـؤمنى بمنتجات الشركة الأمريكية !!

قالت وهى تحاول أن تسخر منه :

– على حسب كلامك .. يبقى لو اتجـوزت واحد باحبه ابقى عبدة له ، ولو عملت عمل اؤمن به ابقى عبدة له برضه .. يعنى، لا مفر من العبودية ..

قال كأنه يلقى خطابا سياسيا :

– الحب هو العذر الوحـيد الشريف للعبـودية .. إن الإنسان يحب وطنه فيـصبح عبدا له ، ويؤمن بمبـدأ فيصبح عـبدا له ، ويحب أمه فيـصبح عبدا لها ، ويـحب صديقه فيصـبح عبده .. ولكن العـبـودية التـى ليس لهـا عـذر هى أن تتـزوجى رجـلا لا تحبينه أو تعملى عملا لا تؤمنين به ..

وصمتت مرة ثانية ..

ثم قامت فجأة من فوق مـقعدها ، وقالت وهى تمد يدها إليه مصافحة :

– أحب أقـول لك إننا مش ممكن نتـفق .. وأنا لسـه مـؤمنة بحريتى ..

ووضـعت يدها فى كفـه ، وللمرة الثانية خـيل إليها أن يدها قد رقـدت طويلا فى راحـته حـتى كادت تغـفو ، فـسحـبتـها بسرعة .

وقبل أن تخرج من الباب ، التفتت إليه سائلة فى لهفة :

– حصل إيه لتوسان بعد كده ؟!

قال كأنه يلقى رثاء :

- خدعه نابليون .. خدعه أسياده البيض لأنه صدق بوعودهم فاعتقلوه وسجنوه فى فرنسا .. ومات فى السجن!!

وارتسم الجزع فى عينيها وقالت وكأن توسان عزيز عليها :

- الكلاب ..

قال وكأنه يصدر حكما رهيبا :

- كل الأسياد كلاب ..

وخرجت .. بينما ارتسمت على شفتيه ابتسامته الضيقة كفرجة من نور فى لوح من الحديد ..

شىء واحد نسيته ، وهو الحجة التى تعللت بها لزيارته ، وكانت حجتها أن تفاوضه فى نشر إعلانات الشركة فى المجلة التى يعمل بها !!

وقادت سيارتها - أو سيارة الشركة - وهى تحاول بينها وبين نفسها أن تهزأ به وبمنطقه .. ولكنها لم تستطع ووجدت خيالها منساقا مع هذا المنطق .. ووجدت نفسها تستعيد قصة توسان ، ثم تتذكر قصة واشنطن الذى حرر أمريكا ، وقصة ديفاليرا الذى حارب الانجليز فى ايرلندا ، وقصة سعد زغلول الذى اشعل فى مصر ثورة ، بل وجدت خيالها يطير بها حتى ينقلها إلى قصة بارديليان والفرسان الثلاثة التى قرأتها فى صباها .. ووجدت نفسها تتخيل كل هؤلاء الأبطال فى صورة عباس .. إن توسان له وجه عباس ، وواشنطن له وجه عباس ، وديفاليرا وسعد زغلول لهما وجه عباس ، وحتى بارديليان له وجه عباس !!

وأفاقت من خيالها فترة وتعجبت من نفسها ..

إنها ليست طفلة حتى تنساق وراء هذه الخيالات الفارغة ، وهذ القصة التافهة وهذه البطولات الكاذبة التى يملأون بها عقول الأطفال .. إنها فتاة أعمال ، فتاة واقعية ، لا تؤمن إلا بالعمل والواقع .

ودخلت مكتبها فى الشركة وقررت أن تعمل .. ولكنها لم تعمل شيئا ، وأحست لأول مرة أن الحجرة المخصصة لها ضيقة حتى تكاد جدرانها تنطبق عيها وتزهق أنفاسها ، ومدت يدها إلى الجرس الكهربائى لتطلب فنجانا من القهوة علّه يخفف عنها الضيق ولكنها تذكرت أن لوائح الشركة تحرم تقديم القهوة فى أوقات العمل ، وتذكرت أيضا أن هذه اللوائح تحرم استعمال التليفون فى المحادثات الخصوصية ، وتحرم استقبال الأصدقاء ، وتحتم عليها أن تسجل جميع الزيارات الخارجية التى تقوم بها أثناء العمل فى دفتر خاص ، وتحرم عليها أن تنتقل إلى مكتب أحد زملائها ، إلا لسبب متعلق بالعمل ..

وكانت تعلم بهذه اللوائح منذ التحقت بالشركة ، وقد طبقتها بدقة مدى عامين دون أن تحس بها ، ودون أن تضيق بها ، ولكنها اليوم لا تستطيع أن تتحملها ، وتحس برغبة جامحة فى أن تحرق كل سطر من سطورها وأن تعب إبريقا كاملا من القهوة ، وأن تتحادث ساعة كاملة فى التليفون مع إحدى صديقاتها ، وأن تدعو إليها مئة صديقة وصديقة ، أحست أنها تريد أن تصرخ وأن تحطم وأن تقتحم غرفة مدير الشركة وتنهال عليه صفعا وركلا ..

إنها ليست حرة ..

ولأول مرة منذ تخرجت فى الجامعة أحست أنها ليست حرة .. ليست حرة حتى لتطلب فنجانا من القهوة !

وارتفع فى أذنيها صوت عباس يقول لها : « قد يكون الزوج أرحم بك من الشركة » !

أى زوج كان يمكنه أن يحد من حريتها حتى يحرمها من شرب القهوة ، واستعمال التليفون ، ويحتم عليها تسجيل زياراتها فى دفتر خاص ؟

وماذا يريد الزوج منها أكثر مما تريده الشركة .. إنه يريد جسدها لينتج أولادا يكونون لها ، والشركة تريد جسدها وذهنها وأعصابها لتنتجه منها صفقات ليس لها منها شيء ؟

وخيل إليها أن عباس يقهقه فى صوت عال هازئا منها . فضربت مكتبها بقبضة يدها فى عنف حتى كادت تحطم لوحته وكأنها أرادت أن تحطم وجه عباس لتسكت قهقهته العالية الهازئة .

ثم هدأت قليلا ..

وأخذت تلوم نفسها .. إنها هى التى ذهبت إلى عباس ، وهى التى حدثته ـ بلا مناسبة ـ عن حريتها المزعومة التى كافحت فى سبيلها ، وكأنها أرادت أن تتباهى أمامه بهذه الحرية ، وتتحداه بها ، أو كأنها أرادت أن تشفى غليلها منه بعد أن تجاهلها العمر كله ..

وربما ظنت أنه لا يزال يعيش بعقلية الحى القديم ، ولا يزال يؤمن بالاشاعات التى كان يطلقها حى العباسية عن سلوكها ،

فأرادت أن تناقش هذه العقلية وهذه الاشاعات وتهزمها .

ولكنها وجدت عباس وعقليته شيئا آخر عما ظنته ولم تجد في حديثه تقاليد ولا اشاعات ، بل وجدت فيه قوة استطاع بها وبضربة واحدة أن يحطم حريتها التى سعت إليها واعتزت بها طوال هذه السنين ، وتركها جارية مستعبدة عليها أن تبدأ الطريق من جديد .. الطريق نحو الحرية !

وبدأت تناقش منطق عباس في هدوء ، وساءلت نفسها كما سألها :

- لماذا أرادت الحرية ؟

إنها لم تردها لتصل إلى هذا الفراغ الكبير الذى يحيط بها والذى يعذبها ، ولم تردها لتكسب هذا الكسب الوفير .. فهى لم تقدر يوما أنها ستصل إلى هذا الفراغ ، ولم تطمع ابدا فى هذا الكسب .. لابد أن هناك شيئا آخر تريد حريتها لأجله ..

وقد قال عباس إن المطالب بالحرية إنما يطالب بها لأنه يؤمن بشىء يريد أن يحققه ، فما هو إيمانها ؟!

وحاسبت نفسها ، فوجدت أنها عاشت حياتها كلها بلا إيمان لم تؤمن بالدين ، فلم تحاول يوما أن تصلى أو تصوم أو تتبع أوامره ونواهيه ، وكانت تذكر اسم « الله » كلما أصابها ضيق ، بحكم العادة وبحكم التقليد الوراثى لا بحكم الإيمان .

ولم تؤمن بالأهداف الوطنية ـ مثلا ـ وقد هزأت من زميلاتها طالبات مدرسة السنية عندما قررن الاشتراك فى مظاهرات عام ١٩٣٥ مطالبات بالدستور ، واعتزلتهن ، ثم عاشت فى الجامعة الأمريكية بعيدا عن كل المحاولات الوطنية التى كان يقوم بها الطلبة ..

ولم تؤمن بمبدأ من المبادىء الاجتماعية والسياسية التى سمعت بها وقرأت عنها مثل الشيوعية أو الاشتراكية أو الرأسمالية ..

ولم تؤمن برجل من الرجال يخضعها وتضحى بحريتها لتتبعه وتلتصق به ، بل كان الرجال كلهم الذين التقت بهم وجوها عابرة تخضعهم لشخصيتها أو تبعدهم عنها .

لم تؤمن بشىء ..

إنما آمنت فقط - وطول حياتها - بنفسها ..

لقد كانت انانية إلى حد ألا تحس إلا بنفسها .. وكانت ضيقة الأفق إلى حد ألا ترى فى الدنيا سوى نفسها .. فأرادت حريتها لتطلق هذه النفس وتشبع نزواتها ..

وربما لم تؤمن حتى بنفسها .. ربما كان كل ما هنالك أن نشأتها بين عمتها وزوج عمتها بعيدا عن أبيها وأمها ، قد تركت فيها جرحا عميقاً ينزف أحاسيس تعصف بها ، فقضت حياتها تفر من هذه الأحاسيس ، وخيل إليها أن هذا الفرار هو الحرية .. وربما كان لها فى ذلك عذر ، ولكنها الآن تخلصت من هذه الأحاسيس ولم يعد هناك ما تفر منه ، فلماذا تريد الحرية ؟

وقررت أن تبحث عن إيمان ..

إيمان بأى شىء ..

إيمان يملأ هذا الفراغ الكبير الذى يحيط بها ، ويقوم سببا وهدفا للحرية التى تعتز بها .

وقضت أياما وليالى طويلة مسهدة تبحث عن الإيمان ..

وعذبتها حيرتها .. كان يخيل إليها أنها تائهة فى صحراء واسعة جافة تطل فى أطرافها خيالات لا تستطيع أن تتبينها ولا أن تصل إليها .. ولهثت من طول العذاب ، وأحست برأسها كأنه أصيب بالحمى لا يسكت عن التفكير ولا يصل بالتفكير إلى شيء ..

وكان وجه عباس يرتفع دائما أمامها ، وربما فكرت أن تلجأ إليه تشكو إليه حيرتها ، بل ربما تمنت فى أوقات ضعفها أن تبكى فوق صدره ، علّ دموعها تخفف عنها ، وعلّ صدره يحميها من هذا الظلام الذى تتخبط فيه .. ولكنها عاندت نفسها، ولم تحاول أن تذهب إليه وقررت أن تعتمد على نفسها وتجد إيمانها بنفسها .. ثم من هو عباس ؟ إنه شاب لم تلتق به إلا مرة واحدة فكيف تلجأ إليه ؟!

وخطر فى ذهنها خاطر بعد طول تفكير ، لماذا لا تؤمن بحقوق المرأة السياسية ؟

واستعرضت فى ذهنها جميع الحجج التى تبنى عليها المطالبات بالحقوق السياسية حقهن ، وقرأت كتابا أو كتابين فى كفاح المرأة ، وخيل إليها أنها اقتنعت تماما وآمنت إيمانا مطلقا ..

ثم بحثت عن إحدى الجمعيات النسائية والتحقت بها . وتصورت نفسها بعين الوهم وقد التفت بها نساء الشعب وقادت بهن ثورة فى سبيل حقوقهن ، وكافحت بهن قوى الظلم وقوى الرجعية وقوى الاستعباد !

وهنا فقط بدأت تتردد على مكتب عباس ، وكانت حجتها فى

هذه المرة أن تحاول اقناعه بالدفاع عن حقوق المرأة ..

ولم تستطع أن تدفع عباس إلى التحمس لقضية المرأة حماسا كبيرا رغم أنه لم يكن ينكر حقوقها .. بل إنها هى نفسها لم تكن تصر كثيرا على أن تحادثه فى قضية المرأة ، إنما كانت تفضل أن تستمع إليه وهو يحادثها عن مبادئه ، وعن مصر ، وعن الرجال ، وعن التاريخ ، وعن الثورة . ثم عندما يمل كلاهما حديث المبادىء والإيمان يأخذان فى حديث الذكريات .

وكان حديثهما فى مبدأ الأمر ضيقا متحفظا ثم اتسع وزالت الكلفة فيه ، واعترف لها أنه كان يعلم أنها تقف فى الشرفة كل صباح وهو فى طريقه إلى مدرسة فؤاد الأول ، رغم أنه لم ينظر إليها أبدا ، واعترف أنه كان يتسقط أخبارها من أخته ومن والدته رغم أنه لم يسألهما أبدا عنها ، كان أحيانا يثور كلما سمع زملاءه الطلبة يتحدثون عنها ، كان أحيانا يثور عليها ، وأحيانا يثور عليهم ، وأحيانا يثور على نفسه ، واعترف أنه ذهب مرة إلى ميدان الانزلاق فى حى الظاهر ليراها تلعب وليتحقق مما يقال عنها ..

ولم يكن يبدو فى اعترافاته أنه يعتذر ، إنما كان يبدو كمن يروى ذكريات مرت ، يضحك لها ويتعجب منها ، ورغم ذلك فقد كانت سعيدة بهذه الاعترافات وكانت تشعر أنها تسترد بها شيئا ظنت أنه ضاع منها ، وتسترد بها عمرا لم تمر به اغتصب من سنين حياتها ..

وقد بادلته الاعتراف ، اعترفت له بكل شىء مر بها .. روت

له كيف قضت طفـولتها في بيت عمتها ، وكـيف حاولت الهرب مـرة ، وكيف طردت من البـيت مرة ، وكـيف تعذبت ، وكـيف كافحت ، وكيف انتصرت ..

وكـشفـت له عن الاحاسـيس التي كـانت تعـصف بهـا في حياتها ، وعن شعورها نحو أمهـا ونحو أبيها .. وكانت تعترف دون أن يسألها اعـترافا ، إنما كانت تقبل على الاعتـراف كأنها تخاطب نفسها ، أو كأنها تتـعرى أمام مرآة فلا تشعر بحرج .. حتى روت له قصتها كلها ..

وكانت تمر بهما أحـيانا فترات صمت تلتقى فيـها نظراتهما فيشتد احمرار أذنيه ، وتحتقن وجنتاها بلون الورد ، ثم يسرع كل منهما يقول كلاما ، وكأنهما يشعران بأنهما اقترب أحدهما إلى الآخر أكثر مما يجب ، فيحاول كل مـنهما أن يتقهقر خطوة إلى الوراء ..

ورغم ذلك فقـد كان كل منهمـا متأكدا أن شـيئا سيـحدث ، ولكنهما لا يعرفان متى يحدث ، ولا كيف يبدأ ..

وكثر ترددها على مكتب عبـاس .. بل أصبحت ـ دون تعمد ـ تتردد عليـه كل يوم ، وأصبحت ـ دون تعمـد أيضا ـ ترفض كثيـرا من الدعوات لا لشيء إلا لتلحق بعباس في مكتـبه حتى أصبحت جزءا من هذا المكتب ، وأصبح وجودها فـيه معترفا به من جميع الصـحفيين زملاء عباس ومن جميع أصدقائه ..

وكانت تقضـى ساعات طويلة وهي ترقب عباس وهو يكتب، أو وهو يتحدث مـع أصدقائه الشبان عن الـثورة وعن المبادئ

وعن الدستور ، وعن السجون التى خرجوا منها أو التى سيدخلون إليها ..

ولم تكن تشعر هى نفسها برغبة كى تعمل شيئا وكان يكفيها دائما أن يعمل عباس .. لم تكن تحس برغبة لتكتب فكان يكفيها أن يكتب عباس وكأنه يكتب لها ، ولم تكن تحس برغبة فى الاشتراك مع الزملاء فى حديثهم ومؤامراتهم وثورتهم ، إنما كان يكفيها أن يتحادث عباس ويتآمر ويثور ، وكأن كل كلمة كلمتها ، وكل مؤامرة قد استوحيت من وجودها ، وكل ثورة هى التى أشعلتها ..

ثم كان عباس يقرأ لها ما يكتبه قبل نشره ، ويعرض عيها فكرته قبل أن يكتبها ، وكانت تناقشه فيها ما وسعها النقاش ، أو تتركه يعرضها عليها دون نقاش ، وهى تحس أنه خلال عرضه إنما يناقش نفسه ويستكمل أطراف موضوعه ، فإذا ما رأت الفكرة منشورة بعد ذلك فى الصحيفة اعتزت بها ، وسارت فى الشوارع يوم صدورها مرفوعة الرأس تريد أن تسأل كل قارىء : هل قرأت المقال .. ما رأيك ؟!

ولم يكن حديثهما مقصورا عى المبادىء الوطنية .. كانا يتحادثان عن قصص الناس ، وعن الحب ، وعن النساء والرجال ، وكانت تقول أحيانا رأيا أو تبدى نظرة من نظراتها إلى الحياة فيناقشها فيها ، ثم إذا به يخرج هذا الرأى أو هذه النظرية فى قصة تقرأها وتعلم أنها صاحبة الفضل فيها ..

وأصبحت مصدر وحيه ..

وأصبح كل شىء لها ..

ورغم ذلك فقد كانت بينهما خطوة لم يجرؤ أحدهما أن يخطوها .

كانا يذهبان إلى السينما فيضيق كل منهما بالظلام وكان كلا منهما يخشى على الآخر من نفسه ..

وكانا يذهبان لتناول الغداء أو العشاء سويا فتربكهما وحدتهما ويشعر كل منهما أنه ينافق نفسه وينافق الآخر إذا ما تحدث عن المبادىء الوطنية أو عن العمل أو عن الناس ..

وكانا يذهبان لسماع الموسيقى الراقصة فترهف الموسيقى أعصابهما حتى يحس كل منهما بأنه يريد أن يثور على الآخر ويحطم شيئا يهدىء به ثورته ، ولم يكونا يرقصان حتى لا يجدا في الرقص رباطا يربط بينهما ويفرج عن عواطفهما المكبوتة ، إنما كانا يجلسان والموسيقى تطوف فوق رأسيهما كأنها دقات دف تقرعه « كودية الزار » لتوقظ فى جسديهما الشياطين الحمر ، فيضيق كل منهما بالآخر ، ويتجادلان فى عنف كطفلين ليس لجدلهما منطق ولا أول ولا آخر ..

ثم كانت تتركه لتذهب إلى بيتها وترقد فى فراشها فإذا به ينطلق من خيالها ويرقد بجانبها وليس بينه وبينها سوى خيط رفيع يظل يفصل بينهما مهما مدت ذراعها نحوه ، ومهما تقلبت لتلتصق به ..

وكانت تتصوره بخيالها عبر هذا الخيط الرفيع وهو راقد مرتديا « بيجاما » تنتقى له ـ بخيالها أيضا ـ لونها وطرازها ، ثم تقيس طول قامته بين الوهم وتلتفت إلى آخر الفراش لتبحث أين سيكون موضع قدميه العاريتين الكبيرتين ، ثم تمد

قدمها العارية علها تصطدم بهاتين القدمين ، ثم تنظر - بعين الوهم أيضا - إلى موضع رأسه فوق الوسادة وترى وجهه الصارم وقد هدأ وارتاحت عضلاته وتشعث شعره الأسود حتى انتثرت خصلات منه فوق جبينه ، ثم ترى شفتيه وقد انفرجتا انفراجة ضيقة كأنهما تناديانها ، فتكاد تحس بشفتيها تلبيان النداء ، وتكاد تحس بذراعه القوية تحيط بخصرها ، وبجسدها ينتفض فى رفق كأن يد الله تمر به لترحمه من عذابه..

ثم تفيق من وهمها وخيالها ثائرة مجنونة تضرب وسادتها بكفيها وتعض فيها بأسنانها ، وتدق فراشها بقدميها .. إلى أن تستجيب لها دموعها فتبكى ، وترتاح ..

وكانت تتساءل كل صباح ، لماذا تستسلم لكل هذه الأوهام.. لماذا لا تستولى عليه إذا كانت تريده ، كما تعودت أن تستولى على كل ما تريد ، لماذا لا تدعوه إلى قبلاتها كما تعودت أن تدعو جلال الذى زاملها أيام الدراسة الجامعية .. أين شخصيتها التى كانت تفرضها على كل الرجال ؟ أين إرادتها التى كانت تمليها على الجميع ؟

ولكنها لم تكن تستطيع .. ولأول مرة أحست أنها ضعيفة .. ضعيفة حتى أمام نفسها !

ولم تعد تنام .. وبدت دائما شاحبة ضعيفة تكاد تعجز عن رفع جفنيها عن عينيها ..

ويبدو أنه هو الآخر لم يكن ينام .. فقد أصبح مجهدا دائما ، عصبيا دائما ، وتهاوى وجهه الصلب حتى أصبح كأنه يشكو

شيئا ، أو يستجدى شيئا ، أو يحاول أن يهرب من شيء .

وكانت خلال كل ذلك قد تناست قضية المرأة وحقوقها السياسية ، وانقطعت عن الجمعية النسائية التى التحقت بها ، بعد أن احتقرت جميع عضواتها ، فلم تكن اجتماعاتهن إلا حديثا عن الأزواج والأولاد والثياب وأنباء الزواج والطلاق والحفلات ، ولا يتحمسن للحقوق السياسية إلا إذا زارهن صحفى ليأخذ أقوالهن وينشر صورهن ، أو إذا أقمن حفلة يدعين إليها الصحفيين ورجال الحكومة ..

وكانت لا تزال مصرة على البحث عن الإيمان .. إيمان يبرر حريتها ويحدد هدفها .. فالتحقت بجمعية خيرية لمساعدة الفقراء ، وذهبت إلى عباس لتبلغه خبر التحاقها بهذه الجمعية ، وكانت متعبة مرهفة الاحساس منهوكة الأعصاب من طول سهادها ، ومن طول العذاب ..

وكانت ساعة متأخرة من المساء وكان عباس جالسا إلى مكتبه يكتب وقد خلت الدار من كل الناس ..

وتلقى عباس الخبر ثائرا ، وألقى بقلمه من يده ، وقال لها وهو يقوم من وراء مكتبه ويحاول أن يبدو متهكما أكثر منه ثائرا :

– وليه ما تنضميش لصالة بديعة !!

ونظرت إليه بعينين غاضبتين وقالت فى عنف :

– قصدك إيه ؟

– الجمعيات دى مش أكتر من صالة بديعة .. شوية ستات ماشيين عريانين .. بيبيعوا لحمهم مع الويسكى والشمبانيا لأسيادنا الأغنياء .

قالت فى دهشة :

– ده علشان الفقراء ..

قال وهو يروح ويجىء فى الغرفة :

– الفقراء أصحاب حق .. مش لازم يعيشوا على الاحسان لازم يفضلوا فقرا ، ويمرضوا ، ويموتوا ، ويشوفوا الغلب ، لغاية ما يثوروا ويطالبوا بحقهم ..

قالت فى صوت ضعيف كأنها تسترحم :

– وولادهم .. الأطفال الغلابة اللى مالهمش ذنب ..

واتسعت خطواته وأخذ يدق بها الأرض كأنه يريد أن يشعلها نارا ، وصرخ :

– ودول كمان لازم يموتوا علشان أهاليهم تثور .. يموتوا ولا يعيشوا على الإحسان ..

وصرخت وكأنها لم تعد تطيق مناقشته ولا سماع صوته :

– أنت ما عندكش قلب .. انت حقود .. انت مدمر .. انت هدام .. حرام عليك ، لازم تعمل حساب الناس ..

وبدا كأنه جن ، واقترب منها وفى عينيه نار ، ومد ذراعيه إليها وغرز أصابعه فى كتفيها ورفعها من فوق مقعدها وأخذ يهزها فى عنف وهو يصرخ :

– حساب الناس هو حساب الثورة ، لازم تقوم ثورة .. لازم كلنا نحترق ونحرق معانا كل شىء .. مش ممكن حنبنى إلا لما نهدم .. فاهمة .. لازم تقوم تقوم ..

ولم تسمع كلمة واحدة مما يقول ، وانحصرت كل حواسها فى أصابعه المنغرزة فى كتفيها .. كانت أصابع قاسية قوية

تؤلمها قسـوتها وقوتها ، وقد أحببت هذا الألم واستسلمت له .
وأحست وهو يهزها بعنف كأنه ينفض غـبارا من فوق جسدها لتبرق من تحـته ومضات حية ، تزداد بريقا وحـياة كلما ازداد عنفا ، وكلما احست بجسـدها يلامس جسده في هذه اللمسات السريعة الخاطفة ..

وألقت رأسـهـا إلى الوراء وهو لا يزال ممسكا بهـا بيـديه ، وكأنها لم تعد في حاجة إلى هذا الرأس ، بينما أغمضت عينيها كأنها لا تريد أن ترى إلا أحلامها ..

وفـجـأة كف عن صـراخـه ، وتوقـفت ذراعـاه عن هزها ، وبرقت عـيناه كأنـه تنبه إلى أنهـا بين يديه لأول مـرة ، ونظر إليها .. إلى شفتيها المستسلمـتين وكادتا من فرط استسلامهما تسقطان تحت قدميه ..

ومـضت برهة وهو يطوف بعـينيه فـوق وجـهها ولا يكاد يتـبين خطوطـه ، وكأنه أفـاق من ثورته على شيء أجـمل من الثورة ..

ولم تفتح عـينيها لتنظر إليـه .. إنها لا تريد أن ترى .. تريد أن تحس ، وتنتظر أن تحس شيئا ..

وأحست بنفسـها فوق صدره ، وبذراعيه القـويتين تحيطان بهـا وتضغطان عليـهـا في عنف وكأنه يـريد أن يخفـيهـا في ضلوعه .

ثم أحست بشفتيها تختفـيان في شفتيه وترقدان بينهما في غفوة لذيذة وتتنفـسان بينهما في هدوء مريح ، كأنهـما وجدتا مقرهما بعد أن تاهتا عنه العمر كله ..

ولم تع شيئا ، لم يكن رأسها موجودا فوق كتفيها لتعي به .. إنما أحست بقلبها ينخلع من صدرها ويسحب روحها معه ليلحقها بشفتيها ، ويعيش الجميع .. القلب والروح والشفتان .. بين شفتيه ..

ولم تدر متى رفع شفتيه عن شفتيها ، ولكنه عندما رفعهما أسندت رأسها إلى كتفه وهي لا تزال مغمضة العينين ، كأنها لا تريد أن تصحو من أحلى أحلامها ..

ومد كفه يمسح بها فوق شعرها بينما مال برأسه يسنده فوق رأسها ، وسكت ليترك قلبه يدق بجانب قلبها وكل منهما يروي للآخر قصة حب ..

وسكتا طويلا ..

ثم رفعت رأسها ونظرت إليه بعينين تكاد فرحتهما تغطي على أبصارهما ..

وإذا بنور ساطع يشرق في صدرها ..

لقد وجدت إيمانها ..

إنها تؤمن بهذا الرجل ..



٩

وأصبحت أمينة شيئا آخر .. شيئا لم تكن تعرفه عن نفسها.. أصبحت كفتاة فى السابعة عشرة من عمرها .. مرحة دائما فرحة دائما ، بل إنها لم تحس أبدا أنها فى السابعة عشرة كما تحس اليوم ..

وتبخرت من رأسها كل أحلامها عن الحرية ، لم تعد تفكر فى الحرية ولم تعد تشعر أن أحدا يستعبدها ، ولم يعد عملها

فى الشركة هو أهم ما يشغل حياتها ، بل أصبحت تذهب إلى العمل كأنها طالبة تذهب إلى المدرسة . تمرح وتلعب ويتتابها الضيق أحيانا ، وتحرص على النجاح ولكنها تخفف عبء يومها بمعاكسة زملائها ، وبمخالفة اللوائح والتعليمات ، ثم يتوه عقلها ويذهب بعيدا عن واجبات العمل إلى الدنيا التى تفضلها ..

وقد خالفت لوائح الشركة وبدأت تتصل بعباس كل صباح بالتليفون لتروى له قصة ليلها ولتسمع منه قصة يومه ، ثم تتفتح أمامهما أبواب واسعة لحديث طويل .

وخالفت لوائح الشركة وبدأت تزور عباس فى مكتبه خلال أوقات العمل دون أن تسجل زياراتها له فى االدفتر الخاص الذى تعده الشركة لمندوبيها وموظفيها ..

ثم ضاقت بعملاء الشركة فلم تعد تطيق دعواتهم أو صحبتهم بعد أن خصصت كل ساعات فراغها لعباس .. وقلّت تبعا لذلك مبيعاتها ، ولم تعد تنتج للشركة ما تعودته الشركة فى إنتاجها فبدأ الرؤساء يلفتون نظرها فى لطف ، ثم بدأ « لفت النظر » يتخذ شكلا رسميا يتضمن تهديداً خفيا بالاستغناء عن خدماتها .

ولم تأبه لهذه التهديدات ولا لخطابات « لفت النظر » ، وإنما تمادت فى إهمالها لعملها ، واقنعت نفسها بأن القيد الوحيد على حريتها هو ارتباطها بالعمل فى هذه الشركة ، وإن كفاحها يجب أن ينصرف إلى تحدى رؤسائها وإلى تحدى الشركة ، وأن انتصارها لن يكون إلا يوم تترك الشركة وتمنح أيامها وذهنها لمن تريد ..

ولم تكن تريد إلا عباس ..

لم تكن تريد منه شيئا بالذات .. إنما كان كل ما تريده منه هو ما يريده منها .. كان يريدها أن تسكت ليكتب مقاله، فتجلس أمامه ساكنة الساعات الطوال وكأنها لا تريد شيئا إلا السكوت .. وكان يريدها أن تتكلم فى السياسة فتمضى الساعات تناقشه فى السياسة وكأن أحب شىء إليها هو حديث السياسة ..

وكان يريدها أن تذهب معه إلى جبل المقطم ليقفا فوق قمته، وأنوار القاهرة تتلألأ تحت أقدامهما كحبَّات الماس فى كف الظلام، فكانت تذهب معه وكأن قمة المقطم أعز مكان لديها .

وقد أرادها يوما أن تذهب إلى بيته .. وبدا الأمر طبيعيا لا غرابة فيه .. فقد خرجا ذات مساء من مكتبه ووقفا يتساءلان إلى أين يذهبان لتمضية شطر من الليل، ثم قال فى هدوء وكأنه لا يعنى شيئا شاذا :

– تعالى نقرأ كتاب .. عندى فى البيت !!

ولم تعلق بشىء، ولم تلمح شيئا يستحق التعليق، ولم يخطر على ذهنها أن فى الأمر ما يدعوها إلى التردد، أو إلى مراجعة نفسها .. وكانت تعلم أنه يقيم وحيدا فى شقة صغيرة فى شارع الانتكخانة، وكانت تعلم أنها تحبه وأنه يحبها، وأنها تريده وهو يريدها وأنها فتاة وهو فتى .. ورغم ذلك فإن احتمال انفرادهما فى شقة خاصة لم يهز شيئا من كيانها، وربما ما كان تعلمه من حبها له، وما تعلمه من حبه

لها ، أضفى على روحها وجسدها اطمئنانا كان أقوى مما يمكن أن يثيره فيها خيالها ..

ولكنها عندما وقفت بجانبه أمام باب الشقة وبدأ يدير فيه المفتاح .. تذكرت فجأة الشقة الملاصقة لشقتها والتى كان يستعملها أحد الشبان فى خلواته مع النساء ، وتذكرت الفتاة الشقراء التى رأتها مرة تدخل إلى هذه الشقة وهى تتلفت خائفة كأن شبحا من أوهامها يطاردها ، فوجدت نفسها تتلفت كما تلفتت هذه الشقراء .. وأحست بريح رطب يملأ صدرها وكأنها تسقط من علو شاهق ولا تزال معلقة بين السماء والأرض ، وأحست برعشة خفيفة تدب فى ساقيها وكأنهما تتخليان عنها .. ونظرت على عباس كأنها تحتمى به من ضعفها ومن أوهامها ، أو كأنها تتوسل إليه أن يعود بها .. ولكن عباس كان قد فتح الباب وسبقها إلى الداخل ليضىء النور ، وهو يصيح مرحبا :

– اتفضلى ..

وتفضلت فى خطوات ضعيفة ..

وتلفتت حولها دون أن تقع عيناها على شىء ..

وكانت الشقة مكونة من بهو صغير وحجرة واحدة .. ووقف عباس فى وسط البهو يقول وهو يشير إلى أحد أركانه :

– هنا الصالون ..

ثم أشار إلى ركن آخر :

– وهنا غرفة المكتب !!

وأشار إلى ركن ثالث :

– وهنا غرفة الطعام !!

ثم تقدم إلى باب الغرفة الوحيدة وفتحه وهو يقول :

– وهنا تنام العبقرية !

ولم تنظر أمينة إلى داخل حجرة النوم .. نوم العبقرية .. إنما أرخت أهدابها واحتقنت وجنتاها بلون الورد كأنها عروس لم يبق بينها وبين فراش الزفاف سوى خطوة واحدة .. ثم سارت صامتة فى خطى مرتبكة إلى أبعد مقعد من باب غرفة النوم وجلست عليه ، وهى تعجب من نفسها : ما هذا الارتباك الذى تحس به ؟ أين جرأتها وثقتها بنفسها اللتان طالما تحدت بهما الدنيا ؟ لماذا لا تحس اليوم إلا بأنها فتاة .. أنثى .. وأنها فى شقة رجل ؟ لماذا تحس بأنها لا شىء أكثر من فتاة من فتيات العباسية اللاتى لا يشعرن فى أنفسهن إلا بأنوثتهن .. ولا يشعرن من الرجال إلا برجولتهم ؟

وأيقظها من تعجبها صوت عباس قائلا :

– انت قعدتى ! قومى .. قدامنا شغل كتير !!

ورأته يخلع سترته ويقذف بها على أحد المقاعد ، ثم يشدها من يدها ويخطف حقيبتها من يدها الأخرى ويقذف بها هى الأخرى على نفس المقعد ، ثم يسحبها وراءه ويدخل بها إلى المطبخ وهو يقول :

– حضرتك وحضرتى ناويين يطبخوا .

ثم وضع فوق ثيابه مئزرة ، كالتى يضعها الطهاة ، وألبسها مئزرة أخرى ، ثم أخرج من الثلاجة شرائح من اللحم ، وأخرج

من الدولاب كمية من البصل والثوم والبطاطس ، وقال ضاحكا :

– أنت تقشرى البطاطس .. وأنا أقشر البصل .. وبعدين أثبت لك أني ظلمت نفسى لما اشتغلت فى الصحافة .. كان لازم اشتغل طباخ !

وقضيا ساعة وبعض ساعة فى المطبخ يتضاحكان ويصرخان ويتبادلان النكات ، ويغنى فتضحك لغنائه ، وتغنى فيصيح : « الله .. الله .. كمان والنبى يا ست أمينة » !!

وكانت أمينة طول حياتها تكره الوقوف فى المطبخ وتكره أن تتولى طهى الطعام ، ولكنها اليوم أحست أن مكانها الطبيعى هو المطبخ ، وأنها تتمنى أن تقضى العمر كله فيه تطهو الطعام لعباس ، وأحست كما قال عباس ضاحكا ، إنها ظلمت نفسها عندما قضت حياتها تحصل العلم ، لتشتغل فى الشركة الامريكية وأنه كان الأولى بها أن تتعلم الطهى لتشتغل طاهية لعباس .

وقد اغتاظت جدا عندما نظر عباس إليها وهى تقشر البطاطس فإذا بها تقطع نصف الواحدة مع القشر ، فقال ضاحكا :

– خلّى حاجة يا أمينة علشان ناكلها ..

وأجابت ساخطة وقد تدلت خصلات من شعرها فوق جبينها وضغطت على لسانها بأسنانها وهى تقشر البطاطس كأنها طبيبة تجرى عملية جراحية خطيرة :

– المسألة مسألة تمرين .. بكره أتمرن ووريك !

وكانت خلال ذلك قد زايلتها الهيبة والتردد اللذان شعرت بهما عندما دخلت إلى الشقة ، وبدأت تنتقل فى أرجائها كأنها فى بيتها تفتح هذا الدولاب ، وتعبث فى هذا الدرج ، وملأت عينيها من البهو الصغير وتصورت نفسها فى كل ركن منه .. تصورت نفسها جالسة فى هذا المقعد وعباس بجانبها ، وتصورت نفسها تنتقى كتابا من هذه الكتب وعباس يقف خلفها ، وتصورت نفسها مستلقية فوق هذه الأريكة وقد أسندت رأسها فوق ذراع عباس ..

ولكنها ظلت دائما بعيدة عن غرفة النوم لا تقربها ، ولا تدخلها ، إنما تخالس بابها النظر فى خفر وحياء ، وكأنها تقاوم فى نفسها رغبة عنيفة تخجل منها ..

ثم اضطرت أخيرا إلى دخول غرفة النوم عندما صرخ عباس ، وهو فى المطبخ ، يطالبها بأن تبحث عن علبة الثقاب فى درج « الكومدينو » بجانب السرير ..

وخطت فى بطء وتمهل نحو الغرفة وفتحت بابها فى تردد وهيبة ، ثم دخلت وهى تلتقط أنفاسها كأنها داخلة إلى معبد مقدس لتعترف إلى الراهب الأعلى ، وسمعت صدى اعترافاتها تتجاوبها جدران المعبد ، وطن فى أذنيها صوت كصدى أحلامها ينطلق من صدرها .. وأحست بقلبها يضرب بشدة كأنه يدق الطبول ليبشر بدين جديد مثير .. ومدت يدا مرتجفة تتحسس الحائط باحثة عن مفتاح النور ، وأضيئت الغرفة ، وسقطت عيناها مرة واحدة فوق « بيجامته » المعلقة على المشجب وخيل إليها أنها من نفس اللون الذى تخيلته دائما ،

أو إنها لو كانت قد انتقتها له لانتقتها من هذا اللون .. ثم طافت عيناها بالفراش ترى موضع رأسه منه وموضع قدميه الكبيرتين ومدت يدها دون وعى منها وأخذت تمسح بها الغطاء وكأنها تمسح مقام أحد الأولياء لتتبرك به .. ثم أخذت تتلفت حواليها ، وخيل إليها أنها تعرف هذه الغرفة منذ زمن طويل وأنها قضت فيها ليالى عديدة .. خيل إليها أنها عاشت العمر كله تبحث عن هذه الغرفة ، كما هى ، وبكل ما فيها من فوضى وقلة النظام ..

ولمحت جريدة صباحية ملقاة على الأرض فانحنت والتقطتها ووضعتها فوق المائدة الصغيرة ، ورأت منشفة ملقاة فوق حافة السرير ، فالتقطتها ووضعتها فوق المشجب .. أو ...

وأيقظها من هيامها بين هذه الجدران الأربع ، صوت عباس يناديها :

– الكبريت يا أمينة ؟

وفى حركة آلية ، كأن صوت عباس سرى فى أعصابها دون أن تعيه ، مدت يدها وفتحت درج « الكومدينو » والتقطت علبة الثقاب .

واتجهت إلى المطبخ وأحلامها لا تزال معها ، وقد قفزت هذه الأحلام إلى وجنتيها فأسالت فوقهما دماء اختلطت بسمرة بشرتها فأصبحتا فى لون الشفق .. وسرت الأحلام فى شفتيها فارتجفتا كأنما مستهما يد السحر وراحتا تبتهلان فى همسات صارخة إلى الساحر المجهول .

ومدت يدها بعلبة الثقاب إلى عباس وهى تنظر إليه كأنما

لأول مرة ، وتطوف بعـينيها فوق وجـهه كأنها تبحـث فيه عن الساحر المجهول .

ونظر إليها عباس فى تعجب ، وكأنه دهش لحالها ، ثم قبلها فوق شـفتيـها قبلة سـريعة لم تتوقف لتـرتوى منها الشفـتان المبتـهلتان ، والتقط من يـدها علبة الثقـاب ، وعاد إلى « وابور الجاز » !

واستطاع غناء عـباس وصراخه ونكاته و « لخـمته » وهو يطهو الطعام أن يوقـظها من أحلامها ، فـعادت تضحك وتغنى مـعه ، وتتاوله هذا الوعـاء ، أو هذه المغـرفة .. ثم بدآ يلتـقطان شـــرائح اللــحم وقطع البـطاطس وهى لا تـزال فـــوق النار ، ويأكـلانها .. وأكلت كـثيـرا .. وبشغف .. وكـأنها تأكل ثمـار الجنة ، أو ثمار النار .. وعندما اطفـأت « وابور الجاز » كانا قد انتهيا من الطعام وأتيا عليه كله .

وقال عباس وهو يشم يديه وثيابه :

– أنا بقيت كلى بصل !

ثم اخـتفى داخل الحـمام ، وسمـعت صوت « الدش » بـعد قليل ، ثم خرج عليها يرتدى « روب ديشامبر » وشعره لا يزال مبـتلا بالماء وقـد تدلت خصلات منه فـوق جبيـنه فى فوضـى محببة ..

وقالت فى صوت ضعيف :

– نعيما ..

– الله ينعم عليكى .. مش عايزة تغسلى إيديكى ؟

ودخلت إلى الحمام ونظرت إلى الدش وتخيلتـه واقفا تحته عاريا فغضت النظر !

وغسلت يديهـا ، وسكبت فوقهما مـاء الكولونيا ، وأصلحت من نفسها أمـام المرآة ، وخرجت لتجده مستلـقيا فوق الأريكة الكبيرة وفى يده كتاب .

وجلست بجانبه على حافة الأريكة .

وبدأ يقرأ ، فقرأ أبياتا للشاعر الانجليزى اديسون :

« أيها الحب المبهم ، أيها الكنز الغامض ..»

« هل لديك مزيد من الشقاء ، أو مزيد من السعادة .. »

« إن عذابا لا نهاية له يطوف حولك .. »

« ولكن من يعيش ، ويستطيع أن يعيش بغيرك ؟»

وقاطعته وكأنها تتم أبيات الشاعر :

– هل فى الحب عذاب ؟

قال وقد أبعد الكتاب عن وجهـه وأطل عليها بعينين ملؤهما الحب :

– إنه عذاب إذا فقدتك ..

قالت وكأنها تحلم :

– وهل فى الحب مزيد من السعادة ؟

– إن كل خـفقـة من قلبينا مـزيد من السعـادة ، وكل نظرة تجمـعنا مـزيد من السعـادة ، وكل لمسة تصل بيننا مـزيد من السـعادة ، وكل حلم يطوف بنا مـزيد من السـعادة .. سـعادة تزيد بنا حتى ترفعنا فوق قمتـها إلى السماء .. سعادة ليس لها آخر ما دمت لى ، وما دمت لك .

ونظر إليها بشفتـيه ومد إليها ذراعيه فهـمست كأنها تتأوه من فرط السعادة :

— يا حبيبى !!

ثم ألقت بنفسها فوق صدره وفوق شفتيه !

وضاع منها رأسها كما تعود أن يضيع كلما التقت بشفتيه ، وأحست بالنار تطفو فوق جسده الرطب المبتل بقطرات الماء ، وأحست بهذه النار تسرى فى جسدها كأنها نفحات الحياة ، ثم أحست بوجهه فوق وجهها وعبير عبق من أنفاسه يلفها كأنها رقدت عارية فوق المذبح المقدس وأعمدة من أبخرة المسك والعنبر تحيط بها ، بينما أصابع الساحر المقدس تباركها فى لمسات عنفها شفقة ، وقسوتها رحمة ، وظلمها مغفور ..

وتلاحقت أنفاسها كأنها لم تعد تحتمل مزيدا من السعادة .

وتمنت ألا يعود إليها رأسها أبدا ....

●●●

وانقضت ثمانى سنوات منذ زارت أمينة عباس فى مكتبه لأول مرة حتى اليوم ..

ثمانى سنوات مرت كالحلم لا صيف فيها ولا شتاء ولا خريف ولا ربيع ، وإنما كلها كالنغم الجميل يعزفه فنان لا يلحن ولا يخطىء ولا يقسو على سامعيه .. نغم يلفها فى صحوها ونومها ويرتفع بها أحيانا فيطلقها فى سماء الهناء ، ويهبط بها أحيانا فيوسدها فراشا من أوراق الورد تتقلب فوقه نشوانة هيمانة ..

ثمانى سنوات كانت كل قبلة خلالها كأنها أول قبلة ، وكل لمسة كأنها أول لمسة ، وكانا كلما أطفآ النور خيل إليهما أنهما يلتقيان لأول مرة .. وعرفت خلالها فى الحب مزيدا من

السعادة ، فكل يوم مزيد من السعادة .. سعادة تفيض بها حتى تشمل الدنيا كلها من حولها .. ولم تكن تعلم أن فى الدنيا كل هذه السعادة وكل هذا الجمال ..

وقد تركت أمينة عملها فى الشركة الأمريكية لأنها أصبحت لا تستطيع أن تهب ذهنها وأعصابها ووقتها لبيع منتجاتها ، والتحقت عاملة على الآلة الكاتبة فى شركة أخرى بمرتب قدره ثلاثون جنيها .. وارتضت هذا العمل المتواضع لأنه لا يكلفها كثيرا ، ولأنه يترك ذهنها وأعصابها لعباس ..

ومنذ ثمانى سنوات حتى اليوم وليس فى حياتها إلا عباس ، ولم يعد يهمها من نفسها شىء إلا أن ترضى عباس ، ولا تريد من الحياة شيئا إلا ما يريده عباس ..

إنها تخرج من عملها لتذهب إلى بيت عباس تعد له طعامه وترتب له بيته وتحاسب خادمه ..

وقد تعلمت الطهى وقضت الساعات الطوال فى المطبخ تقلب صفحات كتاب « أصول الطهى .. للسيدة نظيرة نقولا وبهية عثمان » لتخرج من بين سطوره طبقا شهيا تقدمه لعباس ..

وتعلمت أشغال الابرة فلم ينقص شتاء إلا وكان لعباس من أصابعها « صدار » أو اثنان ..

وتعلمت الكنس والمسح واشترت المجلات الأمريكية الخاصة بترتيب البيت لتقتبس منها ستارة تعلقها فوق النافذة ، أو مائدة مبتكرة توصى النجار بصنعها .

لقد أصبح بيتها هو بيت عباس .. ورغم ذلك فهى لا تعيش معه ، إنما لا تزال تعيش مع أبيها العجوز الذى لا يتدخل فى

شئونهـا ولا يسأل عن أمر من أمورها ، ولا يعلم شيئا عن عباس ، وكل ما يهمه أن تكون سعيدة ، وهو لم يرها طوال حياتها أكثر سعادة مما هى عليه الآن ..

ولم يعد لأمينة أطماع فى الحياة ، لا تريد أن ترتقى فى عملها ، ولا تحاول أن تبحث عن عمل أوفر كسبا ، إنما انحصرت كل أطماعها فى عباس .. إنها تريده كاتبا كبيرا ، تريد أن تحقق له ثورته ، وتريد أن يكسب كثيرا وأن يمتلك جريدة خاصة به ، وأن يكون نائبا ، أو وزيرا ..

وقد حققت له كثيرا من أطماعه .

لقد أصبح بفضلها كاتبا كبيرا بعد أن وفرت له سعادته معها ، ذهنا صافيا وقلما قويا ، وبعد أن رفعت عنه مشاغل حياته الخصوصية ، فانصرف بكليته إلى عمله ، وبعد أن قرأت معه كل مقال نشره ، وقرأت له عشرات الكتب ولخصتها له ليستعين بها فى أبحاثه ، وبعد أن زوده الحب بالقدرة على الكفاح وتحمل المقاومة والصبر على ما يرميه به اعداؤه ..

وحقق بفضلها ثورته ، فهى التى كانت تدفعه ، وكانت تحذره .. وكانت تجمع حوله الثائرين ، وتخبىء الهاربين منهم من وجه البوليس فى بيتها ، وتقف على خدمتهم أثناء اجتماعاتهم ، وتشترك فى مناقشاتهم بعقلها الراجح وحماسها الواعى ، حتى أحبه الثائرون كلهم من أجلها .

وحقق بفضلها الربح الوفير ، وارتفع ثمن المقال الذى يكتبه إلى القمة ، ولم يكن يعرف كم يكسب وكم يصرف .. ولكنها هى التى كانت تعرف ، وهى التى كانت تصرف ، وهى التى كانت تدخر له ..

وفقدت أمـينة في سبيل ذلك حريتها ، لم تعـد حرة .. فهى دائما ملك له ، وملك لنزواتـه ، وملك لأوقاته ، وملك لما يريد .. ولكنهـا لا تحس أنها فـقدت شـيئـا ، ولم تنتبـه إلى أن الحب والحرية لا يجـتمعان ، ولم تنتـبه إلى أن الحب هو التنازل عن الحـرية ، فالإنسـان الحر .. حـر فى أن يحب ما يشـاء أو من يشـاء ، ولكنه عندمـا يحب أو عـندمـا يؤمن فـإنما يتنازل عن حريته فى سبيل حبه وإيمانه .. وهـى قد أحبت عباس .. وآمنت به .

بل إنها لم تنتبه إلـى أنها أصبحت صورة مهذبة من عـمتها التى كانـت تحتقـر عقليـتها وتحـتقـر حظها من الحـياة الذى انحصـر فى خدمة زوجهـا .. إنها تقضى السـاعات فى المطبخ كما تقضيـها عمتها ، بل إنها قضت مرة يومـا بأكمله تعد كعك العيد لعـباس ، كما كانت تعـده عمتها لزوجـها .. وهى تقضى السـاعات وحـيدة فـى انتظار عبـاس تشـتغل بالأبرة أو تقـرأ كتابـا ، دون أن تمل الانتظار ودون أن تثور على نفسـها تماما كعمتها عندما تنتظر زوجها .

وربما تسـاءلت يومـا : هـل إذا كـانت قـد التـقت بعـبـاس أو بالرجل الذى تحبه وهـى فى الخامسة عشـرة من عمرها .. هل كانت تستمـر فى دراستها وتصر عل الالتحـاق بالجامعة ، وتصر على أنهـا تعمل وتكسب قوتها بيـدها ؟ أم كانت وفرت على نفسها هذا الجهـاد الطويل الشاق الذى قطعت فيه سنوات

من عمرها، وفضلت أن تهب نفسها وحريتها للرجل الذى اختارته؟

●●●

سؤال واحد لا يزال يطوف بألسنة الناس منذ ثمانى سنوات حتى اليوم :

إنها لا تفكر فى الزواج لأن عباس لا يفكر فيه ..

وهو لا يفكر فى الزواج لأنه لا يؤمن به ، ولأنه يخشى على حبهما منه .

وربما طرأت على ذهنها فكرة الزواج وربما راودتها فى أحلامها صورتها وهى فى ثوب العرس الأبيض جالسة بجانب عباس فى « الكوشة » ثم يقومان سويا يسيران فى الزفة ، والعوالم من حولهما يقرعن الدفوف وينشدن : « مبروك عليكى عريسك الخفة .. يا عروسة » !

ولكنها تعودت أن تضحك من أحلامها ، ومن وصف عباس بأنه « عريس خفة » .. وهى معتزة دائما بينها وبين نفسها بليلة زفافها التى قضتها تقشر البطاطس فى المطبخ بينما عباس يقشر البصل ، وهى معتزة دائما بحبها لعباس وحب عباس لها ، وتؤمن بهذا الحب أكثر مما تؤمن بالزواج .

وربما تمنت يوما أن يكون لها طفل من عباس ، بل إنها تمادت فى أمانيها حتى اختارت أن يكون المولود بنتا واختارت لها اسم « خديجة » على اسم أم عباس ، وتصورت نفسها وهى فى المستشفى تضع مولدها ، وتصورت نفسها وهى فى

البيت تبدل ثيابها أو تغسل جسدها الصغير وتنثر عليه مسحوق البودرة ، أو تصورت عباس يعود إلى البيت وابنته الصغيرة تستقبله مهللة : « بابا .. بابا » وهى من ورائها فرحة بالبنت وأبيها ..

ولكن حبها كان أقوى من أمانيها .. فتلاشت حلاوة الأمانى فى عذوبة الحب القوى المكين ..

وربما فكرت فى أن تترك عملها التافه لتكون كلها لعباس . تنام معه وتستيقظ معه وتقضى يومها فى انتظاره .. ولكن الحب كان أقوى من فكرها ، وكان أكمل من أن ينقص منه عملها فى الشركة شيئا .. وقد ارتضى لها عباس أن تعمل ، فارتضت العمل لنفسها ..

إنه حب أشبه بالأساطير .. بل هو أسطورة حية لا تزال تعيش بيننا فى عصر عزت فيه الأساطير ..

وقد آمن الناس كلهم بهذا الحب .. لم يشك أحد فيه بعد أن عاش واستقر هذه السنين الطويلة .. لم يجرؤ أحد على اتهام عباس فى حبه لأمينة ، ولم يجرؤ أحد على اتهام أمينة فى حبها ، حتى إن المجتمعات كلها اعترفت بهذا الحب وأصبحا يدعيان إليها كأنهما زوجان ، والمجتمعات المحافظة القليلة التى لم تعترف بحبهما لم يأبها بها ولم يعيراها اهتماما ..

ولكن الناس لا يزالون يتساءلون : متى يتزوجان ؟

وقد يتزوجان غدا ، أو بعد غد ، أو العام القادم .. وقد لا يتزوجان أبدا ، وقد يضيع حبهما وسط السنين ، فإن

قصتهما لم تتم بعد ، ولن يتمها إلا الزمن ..

ولكن الناس لا يزالون يلحـون فى التسـاؤل .. وقد يتجرا واحد من الأصـدقاء القريبيـين ويلح عليها فى السـؤال : « متى تتـزوج من عباس ؟ » وقـد يضمـن سؤاله لهـجة عتـاب ولوم وشفقـة وتحذير ، فتغـضب أمينة وتثور كأن الصـديق يتدخل فيما لا يعنيه ، وتصرخ فى وجهه :

- أنا حرة !!!

رقم الإيداع ٩٩/١٨٠١٤

الترقيم الدولى

I. S. B. N.

977 - 08 - 0878 - 4